البَابُ الثالث

إمام المسلمين

أنت يا جعفر فوق الـ مـدح والمـدح عنـاء
جـاز حدّ المـدح من قـد ولـدتـه الأنبيـاء

« عبد الله بن المبارك »

obeikandl.com

إمام المسلمين

قامت الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة حيث طبق الدين أكمل تطبيق . فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين .

والمدينة هى المقرّ الأمثل لأهل بيت الرسول حيث يرتبطون بكل أثر فيها وترتبط بهم المعانى التى خلد بها الإسلام ، وانتصر المسلمون .

والسنّة هى الشجرة المباركة وفروعها. فى ثمرها اليانع رحمة ويسر ومعرفة . وفى ظلالها الوارفة مودّة وإيلاف وتواصل . ومن هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم ، يسقى من القرآن ويحيا به .

وبالقرآن والسنة ، والفكر الرفيع والفقه المحيط ، اعتصم أهل البيت فى المدينة . فاختصم وإياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية والمروانية والعباسية ، وولاتهم على المدينة . لكنها ظلت مدرسة السنّة والفقه . وتتابع فيها أئمة أهل البيت : زين العابدين ، والباقر ، والصادق .

والفصل الثانى من الباب الحالى مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق ، وأمثال لما يجرى فيه من أقوال ، ومن يشرف بالانتهاء إليه من رجال ، ليسوا كسائر الرجال . فهم أئمة الفكر الإسلامى جميعه . من سنن وفقه ، وزهد وكلام ، وعلوم تطبيقيه . منذ القرن الثانى للهجرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الأول

فى المدينة المنورة

« اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك . وإنه دعاك لمكة . وإنى أدعوك « للمدينة » بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » .

« حديث شريف »

ولى مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ٤٢ . وكان مروان طِلْبَةَ الثوار على عثمان . لو تسلموه لما قتلوا الخليفة - كما قيل - وكان مروان يبحث لنفسه فى الفتنة عن مكان . ومن أجل ذلك رمى معاوية المدينة به ، أو رماه بها ، من فور ولايته للسلطة . وهو ابن عمه وابن عم عثمان .

كان معاوية يصرفه عن الإمرة ثم يعيده . وآثر مروان وأهله الإقامة بالمدينة ، فى الحالين ، على الذهاب إلى دمشق عاصمة بنى أمية ، حيث الصدارة لغيره . وحسن صلاته بأهل المدينة . فلما وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلدته .

ثم أجاءته الرياح إلى حيث نصبه أهله خليفة سنة ٦٤ بعد اعتزال معاوية بن يزيد . ثم خلف مروان ابنه عبد الملك لتبقى خلافته عشرين عامًا من سنة ٦٦ إلى سنة ٨٦ . وفى عبد الملك يقول عبد الله بن عمر : إن لمروان ابنًا فقيهًا فاسألوه . لكنه بعد الخلافة صار ظلومًا عشومًا .

أدخل عليه الأسرى ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم - دون استجواب !

فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه : لقد أقست الخلافة قلبك . وكنت رءوفا ! فأجاب كلّا . ولكن أقساه الضغن بعد الضغن .

كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ٦٣ فى حصار مكة ، حتى إذا ولى الخلافة ضربها الحجاج له فى سنة ٧٣ ! ولما سئل الحسن البصرى أن يقول قوله فى عبد الملك بن مروان أجاب : ماذا أقول فى رجل ، الحجاج إحدى سيئاته !!

ولم يتمهد الملك لابنه الوليد إلّا بعد عشرين عامًا من حكم عبد الملك . فلقد بويع لابن الزبير بمكة سنة ٦٤ من أهل الحجاز والعراق ومصر ، فدارت رحى الحرب ، واستمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ٧١ عندما قتل جند عبد الملك مصعب بن الزبير ، وهدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة . وفى العام التالى استرجع « المدينة » لعبد الملك طارق بن عمر ، وفى سنة ٧٣ قتل عبد الله بن الزبير ، واستسلم للحجاج أهل « مكة » .

وفى حياة الإمام جعفر كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ٨٢ حين عزله عبد الملك بهشام بن إسماعيل ، الذى ضرب سعيد بن المسيب سنة ٨٥ من جراء رفضه بيعة الوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وطاف به فى المدينة .

ثم عزل الوليد هشامًا بعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧ . وعمر زوج أخته وهو زوج أخت عمر . والأربعة حفدة مروان .

وأمر الوليد عمر أن يوقف هشامًا للناس أمام دار مروان ، ولكل عنده مظلمة . فمرّ الناس به يلمزونه ويغمزونه . فصاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأً . وكان هشام من كثرة ما أساء إلى علىّ بن الحسين « زين العابدن » يقول : ما أخاف إلّا من علىّ زين العابدين – فلو أزرى به زين العابدين لحق عليه الدمار من العابدين ومن العامة – لكن زين العابدين ومواليه وخاصته مرّوا به لا يتعرضون له بكلمة . فلما مرّوا وسلم هشام ، صاح : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وردَّ عمر بن عبد العزيز لأهل البيت فدكًا . وكان النبى قد أعطاها لفاطمة

الزهراء ولم يورثها أبو بكر وعمر لها . فكان اجتهاد عمر بن عبد العزيز خلافًا فى الفقه مع أبى بكر ومع جده عمر بن الخطاب .

ومنع عمر الشعار الأموى الآثم . وهو سَب علىّ . وزاد إنصافًا فاستعاض عنه شعارًا تبدو فيه معانى التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب ، وهو الآية الكريمة (ربنا اغفر لنا . ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) . وكان معاوية قد استحدث نظام القصص ليثنى القصاص على الخلفاء من بنى أمية ويزينوا للناس حالهم . فأمرهم عمر أن يقصروا الثناء « على المؤمنين » .

وفى عمر يقول أحمد بن حنبل « ليس أحد من التابعين قوله حجة إلّا عمر ابن عبد العزيز » ويخاطبه كُثير ، وهو من شعراء الشيعة ، بقوله :

وَليت ولم تسبب عليًّا ولم تَخف مـريبًا ولم تقبـل مقالـة مجرم
وصدقت بالقول الفعال مع الذى أتيت فأمسى راضيًا كل مسلم

وفى العام التالى لولاية عمر على المدينة حجّ الوليد ، وبدا له أن يأمر بتوسعة المسجد ، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين وبيت علىّ ، الذى أذن له النبى ، فى حين ردم أبواب سائر الصحابة . فنصح الناس الخليفةأن يعود إلى مقر الملك فى دمشق ويصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة فى مكة والمدينة وبيت المقدس ، وأن يبنى مسجدًا بدمشق ، وبهذا يتحقق غرضه دون أن يلومه الناس . فرجع إلى دمشق وأصدر منها أوامره .

وشق الأمر على أهل المدينة وتظاهروا عليه طالبين ترك « الحجرات » كما تركها صاحب الشريعة . فأصرّ الوليد وأنفذ ، لتنفيذ أمره ، بعثة من العمال من بلاد الروم .

قال خبيب بن عبد الله بن الزبير لعمر : « نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . وطعن فى بنى أمية ، وبلغ خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده . فجلد . ومضى زمن ومات خبيب . فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد : كيف . وخبيب على الطريق ! » .

وفى سنة ٩١ حجّ الوليد ، وخطب على منبر الرسول قاعدًا فى كبرياء . فنفر الفقهاء . وترضى السادات . فاستفز الفقراء .

وكان عمر يؤوى بالمدينة ، من يتهددهم بطش الحجاج فى العراق . لكن الوليد ولىَّ الحجاج على الحج سنة ٩٢ ، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول ، فقبل .

* * *

ولم يكن عدل عمر مانعًا ، بل ربما صار مقتضيًا ، أن يعز له الوليد بعثمان بن حيان المرى سنة ٩٣ ، فأنزل الوالى الجديد النكال بالعلماء ، ومنهم ناسك المدينة محمد بن المنكدر فقيه بنى تيم قبيلة أبى بكر وأخوال جعفر الصادق ، وقذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله : « أيها الناس إنا وجدناكم أهل غشّ لأمير المؤمنين فى قديم الدهر وحديثه » .

وامتدت يد البطش إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى « وجده عمرو عامل الرسول » ، فأمر بحلق لحيته لولا أن عزل الخليفة الجديد « سليمان بن عبد الملك » عثمان بأبى بكر ذاته سنة ٩٦ . وبقى أبو بكر أميرًا على المدينة حتى سنة ١٠١ . واجتمع له القضاء والإمرة عليها فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولما عزله يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر ، بعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عذب الوالى الجديد أبا بكر . فلما عزل عبد الرحمن سنة ١٠٤ ، حاقت البأساء والضراء بعبد الرحمن ، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله .

وفى سنة ١٠٦ تولى ابراهيم بن هشام بن اسماعيل - وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك - فبقى إبراهيم واليًا إلى سنة ١١٤ . ثم عزل بخالد بن عبد الملك بن الحارث بن أبى العاص ، فبقيت له الإمرة حتى سنة ١١٨ .

وخطب خالد على منبر الرسول ، فانتقص أولاد الرسول وأباهم عليًّا . فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال : كذبت كذبت . حتى حيل بينهما . ثم عزل بمحمد بن هشام بن إسماعيل أخى إبراهيم وبقى حتى سنة ١٢٥ .

وكما ولى محمد وإبراهيم ابنا هشام ، لخئولتهما لهشام بن عبد الملك ، ولى الوليد بن يزيد إمرة المدينة « خاله » محمد بن يوسف الثقفى . وأمره أن يعذبهما ، وأن يقيمهما للناس ، وأن يبعث بهما إلى والى العراق ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب . ففعل . وبقى حتى سنة ١٢٦ فعزل بعبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز ليبقى ثلاث سنوات حتى سنة ١٢٩ ، فيحل محله عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك .

وفى ولاية عبد الواحد كانت شمس بنى أمية فى الغروب : لقد طرد الحارث ابن سريج عاملهم نصر بن سيار من أقصى الشرق فى مرو – وأقبل أبو حمزة « الخارجى » يخرجهم من قلبْ الإسلام فى المدينة سنة ١٣٠ بعد وقعة قديد . وفيها قتل من أهل المدينة خلق كثير . وهرب عبد الواحد .

وسفر إلى أبى حمزة ، وهو على أبواب المدينة ، السفراء : شيخ بنى هاشم عبد الله بن الحسن ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكان محسوباً مع بنى هاشم لما يجمعه بهم من رحم ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر خال الإمام جعفر ، وعبد الله بن عمر بن .. عمر ، ومعهم ربيعة الرأى شيخ مالك بن أنس ، فى رجال آخرين . فعامل أبو حمزة الوفد معاملة الخوارج للصحابة : عبس وبسر فى وجه الأولين حفيدى علىّ وعثمان . وبشر فى وجه الثالث و الرابع – حفيدى الشيخين : أبى بكر وعمر . وقال لهما : والله ما جئنا إلاّ لنسير بسيرة أبويكما .

قال شيخ بنى هاشم والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا . ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة . وهذا ربيعة يخبرك بها ..

أقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم ..

* * *

ثم جاءت دولة بنى العباس . وتولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن على فقام فخطب فقال : أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال ؟ .. والسيف مشهر :

حتى يبيد قبيلة فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقى حتفه - وولى بعده زياد بن عبد الله ابن المدان خال السفاح .

وأحاط السفاح ببنى أمية : دعاهم ، ومنحهم الأمان ، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم . وكانوا ثمانين رجلا وَنَيِّفًا . وفى سنة ١٣٣ قتل عمّاله من أشياعهم ثلاثين ألفًا بالشام .

واستدعى عبد الله بن على ، أخو داود ، وقائد جيش الشام ، الإمام الأوزاعى إمام الشام إلى عسكره فسأله : ما تقول فى بنى أمية ؟

قال : لقد كانت بينك وبينهم عهود . وكان ينبغى أن تفوا بها .

قال : ويحك . اجعلنى وإياهم لا عهد بيننا .

يقول الأوزاعى : فأجهشت نفسى وكرهت القتل . فذكرت مقامى بين يدى الله فقلت : « دماؤهم عليك حرام : فانتفخت عيناه وأوداجه وقال : ويحك لم ؟ قلت : قال رسول الله : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث : ثيب زان ، ونفس بنفس ، وتارك دينه . قال : ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة ؟ أليس رسول الله ﷺ قد أوصى لعلىّ ؟ فسكت .. وجعلت أتوقع رأسى يسقط .. وقال : أخرجوه فخرجت » .

وروى عبد الله بن على رماحه من الدم بما لما يسمع التاريخ بمثله . حتى إذا ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨) - عزل زياد بن عبد الله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسرى . وأمر بحمل زياد بن عبد الله إلى العراق مكبلًا بالحديد .

ثم عزل محمد بن خالد وولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ١٤١ . وهو ابن عم مسلم بن عقبة « الذى يسميه البعض مجرم بن عقبة - فهو قائد الجيش الذى دمّر المدينة وارتكب الفظائع فى معركة الحرة سنة ٦٣ » ففاخر

الناس بنقائصه قال : أنا الأفعى بن الأفعى أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم . فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى ورموه بالحجارة .

وفى إمرته اقتحم الجند منازل أهل البيت فأخرجوا منها رجالهم إلى السجون . ومرت مواكب أهل البيت فى شوارع المدينة وهم فى الأصفاد ، هزلهم العذاب والأيام الشداد ، ثم سيقوا إلى الكوفة ، ليودعوا السجن حيث حبسوا - كما يقول المسعودى فى مروج الذهب - فى سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتى مات أكثرهم ، ثم خرّ عليهم ، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم ، ويدفن الذين سبقوهم إلى الموت دون أن يعنى بهم أحد .

وبقى رباح حتى خرج محمد بن عبد الله « النفس الزكية » على المنصور وقبض الخارجون على رباح وأدخلوه سجن المدينة هو وأخاه .

ولما انتهت الحرب عين المنصور على المدينة عبد الله بن الربيع الحارثى فبقى حتى سنة ١٤٧ ثم عزل . فولى مكانه جعفر بن سليمان بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، فبقى واليًا حتى سنة ١٤٩ . وهو الذى أمر بضرب مالك ابن أنس حتى انخلعت كتفه وطافوا به فى المدينة .

وفى ولاية جعفر بن سليمان مات الإمام الصادق .

* * *

بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة فى نحو قرن من الحكم الأموى والمروانى والعباسى للمدينة ، عاش فيه الإمام الصادق ، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن :

١ - ففى حكم بنى مروان ، لم يكن لأهل البيت ، بخاصة ، مشكلة مع الدولة ، وإنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة . أما خروج زيد بن على زين العابدين سنة ١٢١ وابنه يحيى سنة ١٢٥[1] فكان فى أوخر أيام بنى

---

(١) ادعى خالد بن عبد الله القسرى مالا قبل زيد وأبناء الصحابة . فدعاهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى العاصمة وسألهم فأنكروا مزاعمة . فأعادهم إلى واليه على العراق يوسف =

مروان . وكذلك كان خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ ، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد . ولقد سلم عبد الله نفسه لأبى مسلم الخراسانى بعد أن انهزم نصر بن سيار والى خراسان لبنى مروان فقضى أبو مسلم عليه بعد أن استسلم .

بهذا يمكن القول إن زين العابدين وابنه محمدًا عاشا أكثر من نصف قرن فى سلام مع السلطة . وبهذا السلام تَبَوَّأا الذروة من الاحترام والطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر ، وللقدوة الصالحة أن يشيع هداها ، كالشعاع ينشر النور فى المدينة ويحمل الدفء إلى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار .

٢ – كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء فى دمشق والأنبار والكوفة ، وإما صنائع لهم . لكنهم كانوا – عدا عمر بن عبد العزيز – مستضعفين من الجميع ، يعزلون ، ويقامون للناس ، ليتخذوهم سخريًا أو ينكلوا بهم .

وفى أواخر أيام بنى مروان سخر الناس منهم علانية ، واشتجروا معهم ، إذا مسّوا أمير المؤمنين عليًا بسوء .

وكان عبد الملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله : « جنبنى دماء بنى هاشم فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا عليهم لم ينصروا » – وهو الباطش ، الذى تولى له بالعراق الحجاج ، وبخراسان المهلب بن أبى صفرة ، وبمصر هشام ابن إسماعيل وابنه عبد الله ، وباليمن محمد أخو الحجاج ، وبالجزيرة محمد بن مروان « أخو عبد الملك » وكل من هؤلاء ظالم فاتك .

ولما سئل عبد الله بن المبارك : أبو مسلم خير أم الحجاج ؟ أجاب

= ابن عمر ليستحلفهم . وقبل إن هشامًا لم يرد السلام على زيد فأغلظ له زيد فى الكلام . وكان زيد فى الذروة من فقهاء العصر – ولما رجعوا إلى الكوفة استحلفهم يوسف فحلفوا . لكنه أبقاهم محبوسين فى انتظار رأى هشام . فأمره بإخلاء سبيلهم فخرج زيد من الحبس قاصدًا القادسية . واجتمع إليه شيعة الكوفة وطلبوا إليه الخروج على الخليفة وتعهدوا بنصره . فخرج إليهم ، فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله . فحارب حرب الأبطال حتى استشهد سنة ١٢١ . فكان منهم معه ما كان من آبائهم مع جده أى « فعلوها حسينية » كما قال .

ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥ .

« لا أقول أبو مسلم خير من أحد ، لكن الحجاج شرّ منه » .

٣ – أما فى عهد العباسيين – أبناء العمومة – فقد هبت على بنى علىّ ريح صرصر ، من الطغيان المدمر ، لتنزل بهم وبأحفاد الصحابة والتابعين الفزع الأكبر ، كهيئة ما صنع بنو أمية فى كربلاء والحرة . وطبائع الطغيان واحدة .

أهل المدينة :

غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بنى أمية . وتابعته على ذلك دولة بنى مروان لكن المدينة بلدة طيبة وشعب كريم . وثب أهلها بالأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها ، على موثق من أهلها ، ألّا يدلّوا جند يزيد على عوراتها . وجلا الأمويون إلى الشام إلّا زوج مروان بن الحكم ، عائشة بنت عثمان بن عفان ، توجهت إلى الطائف فى حماية « على زين العابدين » .

والمدينة واحة فى قفر ، والرزق نزر فى الصحارى الساخنة ، إلّا ما يرد إلى الناس من تجارة أو عطاء ، متقطع كسحائب الصحراء ، يجرى ، ويجف ، حسب الشهوات ، فى دمشق . وأهل البيت تجيئهم حقوقهم فى بيت المال أو لا تجئ ، لكنهم ينفقون المال خفية وعلانية – ولو كان بهم خصاصة – فعلىّ زين العابدين مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس ، لا يعرف إلّا بعد أن يموت ، فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه . وكذلك أبناؤه ، يتزعمهم الباقر . وهو القائل : إن استطعت ألا تقابل أحدًا إلا ولك الفضل عليه فافعل .

أما ابن عمهم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فكان وثيق العُرَى بالخلفاء . سأله يزيد بن معاوية يومًا كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم . قال يزيد : قد أضعفناها لك . قال ابن جعفر . فداك أبى وأمى . وما قلتها لأحد قبلك . فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية .

ولما خرج عبد الله من المجلس ، قال جلساء يزيد : تعطى رجلًا واحدًا أربعة آلاف ألف درهم ! قال : ويحكم إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين . فما يده فيها إلا عارية .

والحق أن الفقراء كان لهم فى أمواله حق معلوم ، فكانوا يستدينون فى انتظار ورود عطاء عبد الله بن جعفر من العاصمة .

وكان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبرحوا الحجاز إلّا بإذن فأمسى سجنًا واسعًا لمن فيه منهم . وازداد أهله انعزالًا وارتباطًا فتراحموا ، وتصاهروا ، لتصير المدينة مجتمعًا مقطوع القرين ، نرى فيه : « سكينة بنت الحسين » يبنى بها « مصعب بن الزبير » ثم يبنى بضرّة لها « عائشة بنت طلحة » .. أى أطراف يوم الحمل تجتمع فى بيت واحد .

وإليك أطرافًا أخرى فى أختها فاطمة : ولدتها أم إسحق بنت طلحة . وتزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ويرزقان محمدًا . وله بنت من خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير تدعى حفصة . وأم عروة أسماء بنت أبى بكر . فهؤلاء : رسول الله وخمسة من العشرة المبشرين بالجنة علىّ وأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير يجتمعون فى حفصة !

أما الإمام جعفر الصادق فآية من الآيات .

جدّه زين العابدين . وزين العابدين وسالم بن عبد الله بن عمر والقاسم بن محمد بن أبى بكر أولاد خالات ثلاثة . هن بنات كسرى يزدجرد .

وأبوه الباقر ولدته لزين العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن .

وأمه أم فروة بنت « القاسم » بن محمد بن أبى بكر . وقد تزوج أمير المؤمنين عَلِىٌّ أم محمد ، أسماء بنت عميس ، بعد موت أبى بكر . فصار ربيبه ، وترعرع فى كنفه حتى شهد معه الجمل . وكان على الرجالة . وشهد معه صفين . وولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية فى مصر .

وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر عم القاسم وشقيق عائشة . شهد اليمامة مع خالد . وقتل محكم اليمامة فى الحصن فاقتحمه المسلمون . وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردّها وقال لا أبيع دينى بدنياى .

وعبد الرحمن هو القائل وهو يرفض البيعة ليزيد : « جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » .

فجعفر قد ولده النبى عليه الصلاة والسلام مرتين . وعلىّ مرتين ، والصديق مرتين ، ليدلّ بهذا المجد الذى ينفرد به فى الدنيا على أنه نسيج وحده .

ومن الناحية الأخرى ولده كسرى مرتين . ليدل الدنيا - من أعلى مواقعها - على أن الإسلام للموالى والعرب . فذلك هو الدين الذى جاء به رسول الله ﷺ . والذى دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين ، كافة ، أمير المؤمنين علىّ .

هكذا وحّدت المدينة مجتمعها . ورفعت أبناء الصحابة إلى أعلى مقام . وأهل البيت إلى صدارة المجتمع ، يمدون أنسابهم إلى هاماته وأسبابهم إلى طبقاته .

وذات يوم أصهر الحجاج إلى عبد الله بن جعفر فى بنته أم كلثوم . فأبرد إليه الخليفة عبد الملك ليسوغ أباها المهر ويعجل طلاقها ، لأنه تجاوز قدره . وهى حجة ظاهرة ، قد تخفى حجة حقيقية ، إذ كان يخشى أن يمد الحجاج بسبب إلى أسرة قد يشمله هداها ، أو يأسره الإخلاص لها ، أو يبعده عن أن يكون - بجمعه - لعبد الملك ، وبقسوته على من عداه .

* * *

لكن العلم ظلّ الخصيصة الكبرى « للمدينة » . ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التى بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر . ووضعت أسس الدولة ومبادئ الجماعة وانتشر الدين ، فى القارات الثلاثة المعروفة . لتقدم الحضارة الإسلامية ، سياسة وإدارة ، وتشريعًا ، دوليًّاومدنيًّا وجنائيًّا ، واقتصاديًّا ، وقواعد علمية ، وعلومًا تطبيقية ورياضية ، لم تشهدها القرون قبل . وستبنى عليها الحضارات جميعًا . فتكون مجازًا للبشرية من جهالات القرون الأولى ، إلى حضارات العصور الحديثة العلمية والاقتصادية والتشريعية والاجتماعية .

ولما انقضى عهد الرسالة والراشدين الأربعة ، تابعت عاصمة الإسلام ، وإن لم تعد عاصمة الدولة ، رسالتها بالفقه . وهو فى الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس فى البنيان : أن كانت منه قواعد الفكر الإسلامى كافة ، وكانت الحرية

الفكرية لحمته وسداه ، والفضيلة الإنسانية مبدأه ومنتهاه . وفيه صلاح الناس ، والتخفيف عليهم ، وفتح أبواب الرجاء لهم ، وتمكينهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر ، بأداته « الديناميكية » - المحركة - نحو التقدم ، وهى اجتهاد الرأى .

وفى أهل البيت كان النبى مدينة العلم وعلىٌّ بابها ، وريحانتا الرسول من الدنيا الإمام « الحسن » والإمام « الحسين » يمثّلون الجيل الأوّل . وفى الجيل الثانى كان السَّجَّاد - من كثرة السجود - أو زين العابدين - من كمال عبادته - وابناه الإمام الباقر وزيد . وكان لزيد مذهبه .

أما الجيل الثالث من القرون المفضلة فقد تراءى فيه للمسلمين جعفر بن محمد ، الصادق ، بدر تمام ، لجيل كان ختام أجيال .

وأما من عدا أهل البيت فقد نهض عنهم الصحابة وأبناؤهم وأحفادهم بعبْ العلم نهضة جديرة بدين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . فاشتهرت بينهم أما المؤمنين عائشة وأم سلمة ، وزينب بنت أبى سلمة . والعبادلة الأربعة أبناء العباس ، وعمر ، والزبير وعمرو ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وبنته حفصة وعروة بن الزبير ابن أخت عائشة ، وابن أخيها القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وراويتها عمرة بنت عبد الرحمن ، وهؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة ، وسالم بن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيَّب وخارِجَة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وأبو بكر بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار ، وتعلم عليهم جيل جديد : فيه محمد بن شهاب الزهرى وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، ومحمد بن المنكدر ، ومحمد وعبد الله ابنا أبى بكر بن حزم ، وربيعة الرأى ، وهؤلاء مشيخة مالك بن أنس .

ومالك يعاصر فى النصف الثانى من القرن الثانى نهاية الأجيال المفضلة . ثم هو شيخ المدرسة التى نجب فيها محمد بن إدريس الشافعى وتلميذه أحمد بن حنبل .

ولقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم فى العلم وإن لم يزاحموهم فى مكانتهم عند الله والناس .

* * *

ومن المدينة انطلق الفقه الإسلامى إلى العراق ، حيث أقام عبد الله بن مسعود زمانًا معلّمًا ووزيرًا كما سمّاه عمر ، وتعلم عليه تلاميذه وتلاميذ علىّ ، كعبيدة ، وعلقمة ، والحارث . وعن طريق علقمة تعلمت مدرسة التخعيين يتقدمها الأسود وعبد الرحمن ، ويتوسط عقدها إبراهيم بن يزيد شيخ حماد بن أبى سليمان .

وفى حلقة حماد بالكوفة قضى أبو حنيفة عشرين عامًا يتعلم ، ليصبح علمًا على مدرسة الرأى والقياس الذى قعد قواعده الشافعى فانتشر فى كل فروع العلم الإسلامى .

وهوى أبى حنيفة مع أبناء علىّ معروف ، وصلة فكره بزعماء أهل البيت واضحة ، وإن مذهبه ليقارب المذهب الزيدى أكثر مما يقارب المذهب الحنفى غيره من مذاهب أهل السنة كما قيل .

ولقد استشهد زيد - بن زين العابدين - سنة ١٢١ . وفى ذلك العهد جلس أبو حنيفة مجلس حماد بن أبى سليمان بعد وفاته . وشرع يدون بعض مذهبه وكثيرًا من الفروع . ثم مكن أبو يوسف للمذهب بتولية زملائه القضاء ، ليلزموا الناس به ، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوينه فى كتبه الشهيرة .

وتدوين الفقه فى كتاب « المجموع » قد سبق به زيد مدرسة أبى حنيفة . ولعلّ أبا حنيفة تعلم تدوين الفقه عليه - بل إن الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل البيت أنفسهم . ولديهم الكتب فيها العلم ، الأحاديث والفقه ، يتعلمونه كابرًا عن كابر .

فالحجاز والعراق قد تضامنا فى إنتاج الفقه . لتتابعهما بعد ذلك شتى الحواضر ، فى الفسطاط ودمشق وقرطبة والقيروان ، وفى المغرب وفى المشرق ، وفى الأندلس ، ووسط آسيا .

وظاهر من هذا التأريخ أمور :

١ – أن المذاهب الفقهية جميعًا بما فيها المذاهب الباقية إلى اليوم لأهل السنّة ، يتصدرها فى الظهور مذهب أهل البيت على يد زيد بن علىّ زين العابدين . وكذلك يسبق « المذهب الزيدى » مذهب الإمام جعفر الصادق ، الذى تبعه الأئمة من نسله ، وصار يسمى مذهب « الإمامية » . فالصادق صار إمامًا بموت أبيه الباقر فى العقد الثانى من المائة الثانية ، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ١٢١ بسبعة وعشرين عامًا سنة ١٤٨ .

أما أبو حنيفة فمات فى سجن أبى جعفر المنصور سنة ١٥٠ . وأما مالك فمات بعد أبى حنيفة بتسعة وعشرين عامًا سنة ١٧٩ . والشافعى مات بعد أبى حنيفة بأربعة وخمسين عامًا سنة ٢٠٤ . ولحق بهم ابن حنبل سنة ٢٤١ . وأصحاب المذاهب الأخرى بين معاصرين لهم أو لاحقين .

٢ – ان الإمام « جعفر » كما سنرى ، ينهى عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عمومًا والمحدثون خصوصًا ، وهم زعماء الفقه فى المائة الأولى .

وسنرى بعد أن نهى « الصادق » عن القياس لا يعارض الاجتهاد ، بل إنه ليأمر به ، ويبلغ بمنهاجه فى الاجتهاد ما يبلغه سواه .

وسنرى أن منهاجه فى الاعتبار والاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامى ، نقله عنه الفكر العالمى .

٣ – أن البيئة التى عاش فيها أهل البيت ستين عامًا بعد مجزرة كربلاء ، كانت منجبة ، بظهور العلم والعلماء من الرجال والنساء . فشاركت المرأة فى العلم من عهد أمهات المؤمنين . ووجدت الفقيهات فى جيل التابعين وتابعى التابعين من أهل السنة ، فتصدرت نساء أهل البيت سكينة بنت الحسين (١١٧) رضى الله عنها . وكانت بَرْزَةً ، تساجل فحول الشعراء ، بل الفقهاء .

وهى بهذه المساجلات إمام فى استعمال الحرية الشخصية والفكرية[1] تعلم المسلمين والمسلمات ، أن المرأة نصف الناس ، وأن إظهار مواهبها ، وصقلها وتنميتها ، خير للنصف الذى هو المرأة ، وخير للنصف الآخر . ومن المساواة بينهما تقررت للمرأة حقوقها كاملة ، وسلم لها بالحرية الفكرية التى قد تفهم من كلمات الإمام على بن أبى طالب يوم لقى عائشة ، فى إثر انتصاره يوم الجمل ، فقال لها : غفر الله لك . قالت : ولك .. وما استغفر لها إلا لخطأ منها فى الاجتهاد رآه .

وإذا كان النصفان يجتهدان ويجاهدان ، فالأمة كلها فى حالة تقدم ، أو محاولة تقدم – والاجتهاد فى ذاته تقدم – بالعلم أو السعى إليه . وهو بعض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبهما وبالتقوى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

٤ – وفى الهدأة الوقور فى هذه البيئة ازدهر العلم . على النحو الذى كان حريًّا بالمدينة ، وبأهل البيت ، من حفظ لحديث الرسول وتريّث فى النظر والمناظرة ، وتلبّث فى إبداء الآراء ، لما فيها من شبهة المخاطرة ، وصدق فى خدمة حديث النبى بالعمل به وتعليم الناس إياه .

---

(١) زارها الفرزدق بالمدينة . فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : بل جرير حيث يقول .. فعاد لها فى الغداة بشعر جديد يسوغ له قصب السبق .. قالت: بل جرير حيث يقول ... وكذلك صنعت فى اليوم الثالث إذ عاد بجديد .

ووقفت يومًا على عروة بن أذينة شيخ مالك بن أنس فقالت له : أنت الذى يقال له الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... عمدت نحو سقاء القوم أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لنار على الأحشاء تتقد

قال : نعم .

قالت : وأنت القائل :

قالت وابثثتها وجدى وبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال نعم :

فالتفتت إلى جوار ، كن حولها ، وقالت : هن حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قط !

وإنما اشتعلت الثورات ، وشققت الفلسفات ، فى العراق . ففيها تعاقبت ثورات التوابين ، والخوارج ، والخارجين - كابن الزبير وابن الأشعث والآخرين - ومن غليان المراجل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها ، كمثل ما نسب إلى عبد الله بن سبأ أو غيره من عقائد الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة ، كما تبرأ الإمام علىّ ممن ألهوه ، فحرقهم بالنار .

لكن آراء الغلاة وأعداء الإسلام لم تكن تكاد تفد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو محطمة .

فى جوّها النقىّ ، تفتحت أبواب بيت النبى ، وتخرّج فى علومها الأئمة .

زين العابدين

٣٨ - ٩٤

تعاظم بيت زين العابدين فى عدد أفراده يومًا بعد يوم ، وقدّم « السَّجَّاد » لنا ابنه « الباقر » ثم قدّم الباقر ابنه « الصادق » . فكانوا مُثُلًا عُليا فى العزوف عن السلطة والانصراف إلى تعليم الناس العلم الصحيح والعمل الصالح والأسوة الحسنة .

روى عن جابر بن عبد الله وابن عمر إلى جوار روايته علم أهل البيت وحديثهم عن أبيه الحسين وأم المؤمنين أم سلمة . وسمع ابن عباس . ليروى عنه فيما بعد ابناه عبد الله والباقر وخلق كثير . ورأى بعينى المريض العاجز عن الاستشهاد ، مصاير أبيه العظيم ، وإخوته وأعمامه وأولادهم يوم كربلاء .

وتجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع والرحمة : يصلّى لله فى اليوم والليلة ألف ركعة . ولهذا سمى « السَّجَّاد » . إذا توضأ اصفر لونه وإذا قام أرعد من الفرق . ولما سألوه قال : أتدرون من أريد أن أقف بين يديه ومن أناجى ؟

ومع تألق عبد الله بن جعفر بالمدينة ، وهو الصحابى الذى يحرص الخلفاء فى دمشق على مرضاته ، وتفريق عبد الله عطاءه الجزل فى فقراء المدينة ،

واستشهاد ابنين له يوم الحرّة ، وثالث فى كربلاء ، ومع أنه زوج زينب بنت علىّ ، عمة زين العابدين ، مع هذا كله كان زين العابدين يحتلّ مكانه فى الصدارة ، ويحمل وصفه بجدارة .

وفى ذلك نصّ يروى عن مالك بن أنس قال : « سمى زين العابدين لعبادته » .

علمته المحنة والورع الحكمة وحسن الخطاب ، كان فى باكورة حياته على علم عظيم . قال له يزيد يوم أدخل عليه - مريضًا - مع نساء أهل البيت الناجيات من كربلاء - أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت . قال زين العابدين (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) .

قال يزيد : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

قال زين العابدين : هذا فى حق من ظلم لا من ظُلم[1] .

تتابع على الكذب ولاة الشام والأمصار من عهد معاوية يشتمون عليًّا بأمر بنى أمية ، فكان يبقى من كذبهم شىء فى عقول العامة ، أو الصبية الذين لا يعلمون .

كان عبيد الله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة . وكان معلم عمر بن عبد العزيز وهو صبىّ أودعه أبوه أخواله - بنى عدى قوم عمر بن الخطاب - بالمدينة فسمع يومًا شتم علىّ فقال لعمر . يا بنى متى علمت أن الله غضب على أهل بدر ؟ قال الصبى : وهل كان علىّ فى بدر ؟ قال عبيد الله : وهل كانت بدر كلّها إلّا لعلىّ !

---

(١)ولما جىء بزين العابدين فى أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق . فقال له رجل من أهل الشام : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة . قال زين العابدين : قرأت القرآن ؟ قال الرجل : نعم . قال قرأت الـ .. حم ؟ قال الرجل : نعم . قال : أما قرأت : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى) قال الرجل : فإنكم إياهم ؟ قال نعم . ويقصد الإمام الآية ٢٣ من سورة الشورى : (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعلموا الصالحات . قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيهاحسنا إن الله غفور شكور) وأول آيات سورة الشورى (حم) .

فلما ولى عمر الخلافة أبطل شتم أهل البيت . وردّ إليهم حقوقهم .

قال رجل من أنصار الأمويين بالشام : دخلت المدينة فرأيت رجلاً راكبًا على بغلة لم أر أحسن وجهًا ولاثوبًا ولا سَمْتًا ولا دابة منه . فسألت فقيل هذا علىّ ابن الحسن بن علىّ . فأتيته – وقد امتلأ قلبى له بغضًا – فقلت له : أنت ابن علىّ بن أبى طالب ؟ قال : أنا ابن ابنه . فقلت : بك وبأبيك أسب عليًّا . فلما انقضى كلامى قال : أحسبك غريبًا ؟ . مِل بنا إلى الدار فإن احتجت منزلاً أنزلناك . أو إلى مال واسيناك . أو إلى حاجة عاوناك على قضائها . فانصرفت من عنده ، وما على الأرض أحد أحب إلىَّ منه .

ويروى أنه احترق البيت الذى هو فيه وهو قائم يصلى . فلما انصرف « من الصلاة » قيل له ما بالك لم تنصرف حين اشتعلت النار ؟ قال : اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى .

وأنه لما حج وأراد أن يلبى أرعد . وَاصفر وخَرَّ مغشيًّا عليه . فلما أفاق سُئل فقال : إنى لأخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك . فيقول :

لا لبيك ولا سعديك – فشجعوه حتى لبّى . فغشى عليه حتى خرّ عن راحلته .. وكان يرحل من المدينة إلى مكة فلا يقرع راحلته مرة واحدة !

* * *

يقول الأصمعى : « لم يكن للحسين رضى الله عنه عقب إلاّ من ابنه زين العابدين . ولم يكن لزين العابدين نسل إلاّ من ابنة عمه الحسن ، فجميع الحسينيين من نسله » .

أما أكبر صدقته فبالليل . يقول : « صدقة الليل تطفئ غضب الرب » .

ومع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطّى الرقاب حتى يجلس فى حلقة زيد ابن أسلم ، إذا كان هنالك . فيقول له نافع بن جبير بن مطعم : أنت سيد الناس . تأتى تتخطّى خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فيجيب: « إنما يجلس الرجل حيث ينتفع . وإن العلم يُطلَب حيث كان » .

ولقد كان يريد أن يجلس إلى سعيد بن جبير وقيل له : ماذا تصنع بلقاء سعيد ؟ فأجاب : « أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها »[1] .

وزين العابدين لا ينسى أن النبى أَمَّرَ زيد بن حارثة – وكان مولى النبى – على جعفر بن أبى طالب وجعل له القيادة ، فإن قُتِل كانت لجعفر ، فإن قِتل كانت للصحابى عبد الله بن رواحة .

وزين العابدين بهذا يضع السوابق لأهل البيت ليتعلّموا العلم المقارن من فقه المسلمين كافة . ولذلك سيجلس ابنه الباقر إلى نافع مولى ابن عمر . وسيجلس حفيده الصادق إلى عكرمة (١٠٣) مولى ابن عباس وإلى عطاء بن أبى رباح (١١٤) مولى قريش ، يجلس فى المسجد الحرام بجلس ابن عباس . كما يجلس الصادق إلى عبد الله بن أبى رافع مولى أمير المؤمنين علىّ .

فإذا جلس زين العابدين فى المسجد جلس بين القبر والمنبر ، وانعقدت حلقة كحلقة أبيه فى روضة كرياض الجنة ، يقول عنها القائل : « إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة كأن على رءوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتزرًا إلى أنصاف ساقيه » .

ولقد يتحدث مع سليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة إلى ارتفاع الضحى . فإذا أرادا أن يقوما قرأ عليهما عبد الله بن أبى سلمة سورة ، فإذا فرغ عبد الله من التلاوة دعوا الله سبحانه .

ولقد يدخل ابن شهاب الزهرى (١٢٤) وصحبه فيسأله فيم كنتم ؟ فيجيبه أنهم كانوا يتذاكرون الصوم وأنهم لم يروه واجبًا إلّا فى رمضان فيقول السَّجَّادُ :

---

(١) وهو بهذا يعلّم الجميع أن العلم شرف يسعى إليه الشرَفاء . ولو كانوا قمّة الشرف . والنبى رسالته التعليم . ومن ذلك كان تنافس أبناء الصحابة على أن يتعلموا العلم وأن يعلموه وكانت المشقة واقتحام المخاطر والفلوات لتحصيله وإنفاقه فى الناس . يستوى فى ذلك من لا مال عنده كابن حنبل ومن عنده الأموال كيحيى بن معين ، كان عنده مليون درهم أنفقها فى تحصيل الحديث . أو كابن حزم ، قال له أبو الوليد الباجى – عالم المالكية : أنا أعظم منك همة فى طلب العلم . أنت طلبته وأنت تعان عليه . تسهر بمشكاة الذهب . وأنا طلبته وأنا أسهر بقنديل السوق . وأجابه ابن حزم : أنت طلبته فى حال فاقة تريد تبديلها لمثل حالى . وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته . لا أرجو إلّا علوّ القدر فى الدنيا والآخرة .

الصوم على أربعين وجهًا . ثم يشرحها له وجهًا وجهًا . فمنها ما يجب . ومنها ما هو بالخيار أو الإباحة . إلخ .

وفى علمه يقول محمد بن سعد . صاحب الطبقات : « كان زين العابدين ثقة مأمونًا ، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ . عالمًا . ولم يكن من أهل البيت مثله » ويقول الزهرى : « ما رأيت أفقه من زين العابدين لولا أنه قليل الحديث » ..

وهذه الشهادة بالفقه من شيخ مالك بن أنس تعلن رأى جيل التابعين .

بل إن الزهرى يعلن مكانة زين العابدين بين كل الأحياء بقوله : « ما رأيت قرشيًّا أفضل منه » . قصد إليه يومًا ، ونفسه تكاد تُبَسَلُ من ذنب ألَمَّ به . فردّه الإمام إلى صميم الإسلام قال : « قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء أعظم من ذنبك » .

والشافعى الذى يقول فى ابن شهاب الزهرى : « لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينة » يضع زين العابدين فى أعلى مكان . فيعدّه أعلم أهل المدينة .

وكان كثير البكاء من يوم كربلاء . فقيل له فى ذلك فقال : « إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف – ولم يتحقق موت يوسف – وقد رأيت بضعة عشر رجلاً من أهلى يذبحون فى غداة واحدة » .

وربما فسّر لنا هذا المقال بعض أسباب انصرافه إلى تعليم المسلمين دينهم ، لصلاح دنياهم ، وإجماع المسلمين على إجلاله[1] .

---

(١) حج هشام بن عبد الملك فى خلافة أبيه – فرأى رجلاً ينجفل الناس إليه ، ويفسحون فى الطواف له ، فى حين لا يحفل الناس بابن الخليفة ، فسأل من هذا ؟ وسمع الفرزدق السؤال فأنشد ميميته الطويلة المشهورة فى الأدب العربى ومما جاء فيها :

هـذا ابـن خـير عبـاد الله كـلهم ... هـذا التقىُّ النقىُّ الـطاهـر العلَم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأتـه ... والبيـت يعـرفـه والحـلُّ والحـرَم
إذا رأتـه قـريش قـال قـائلهـا ... إلى مكـارم هـذا ينتهى الكـرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عـرب الإسلام والعجم =

وفى سنة ٩٤ ، سنة الفقهاء ، مات جمع من فقهاء المدينة ، عروة بن الزبير ، والسعيدان : ابن جبير وابن المسيبَّ وأبو بكر بن عبد الرحمن . وارتفعت فيها أو فى سنة ٩٥ روح زين العابدين إلى الرفيق الأعلى . مخلفًا أربعة عشر ولدًا منهم عشرة رجال كبيرهم محمد ، أبو جعفر ، المكنى بالباقر ، وفيهم زيد بن على .

الباقـــر

٥٧ - ١١٤

انصرف الإمام محمد الباقر للعلم بكله . فهذا أوّل دروس أبيه له . بقر العلم أى تبحر فيه . فسُمى الباقر .

روى علم أبيه وجدّيه الحسين والحسن وجدّ أبيه - علىّ - وجادل عبد الله ابن عباس .

وعنه روى بقايا الصحابة والتابعين . وكان يقصد الحسن البصرى ونافعًا مولى ابن عمر .

سأل سائل عبد الله بن عمر فى مسجد الرسول فأشار إلى حيث يجلس الباقر وقال : « اذهب إلى هذا الغلام وسَله وأعلمنى عمّا يجيبك » فلما عاد إليه بالجواب قال : « إنهم أهل بيت مفهمون » .

= يُغضِى حياءً ويُغضى من مهابته ... فلا يُكَلَّمُ إلّا حين يبتسم
هذا ابن فاطمة إن كنْتَ جاهلهُ ... بجدِّه أنبياء الله قد خُتموا
اللهّ شرَّفه قدرًا وعظمه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك مَنْ هذا بضائره ... العرب تعرفُ مَنْ أنكرْتَ والعجم
ما قال « لا » قط إلّا فى تشهُّدِه ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
من معشر حبهم دين . وبغضهم ... كفر . وقربهم منجى ومعتصم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

وغضب هشام وأرسل زين العابدين للفرزدق أربعة آلاف درهم ، ردّها الفرزدق قائلًا : إنما مدحتك بما أنت أهله وردّها الإمام قائلًا : إنّا أهل بيت إذا وهبنا شيئًا لا نستعيده .

وروى عنه الفطاحل : أخوه زيد وابنه جعفر الصادق . ثم الأوزاعى إمام الشام . وابن جريج إمام مكة . وأبو حنيفة . وعبد الله بن أبى بكر بن حزم شيخ مالك إمام المدينة . وحجاج بن أرطاه (١٤٥) ومكحول بن راشد . وعمرو بن دينار (١١٥) . ويحيى بن كثير (١٢٩) . والزهرى (١٢٤) ، وربيعة الرأى (١٣٦) شيخا مالك . والأعمش (١٤٨) والقاسم بن محمد ابن أبى بكر (١٠٦) وأبان بن تغلب (١٤١) وجابر الجعفى (١٢٨) وزرارة بن أعين (١٥٠) والثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة ورواة ابنه جعفر الصادق .

يقول محمد بن المنكدر - شيخ مالك بن أنس - فى الباقر : « ما كنت أرى أن مثل علىّ بن الحسين يدع خلفًا يقاربه فى الفضل حتى رأيت ابنه محمدًا الباقر » .

وما هو فى سجاياه إلّا خليفة « السَّجَّاد » . يطوف بالبيت فيركع ، ويسجد ، فإذا مكان سجوده قد بلله الدمع ..

يقول عنه الحسن البصرى : « ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء » .

عايش الباقر أباه زمانًا طويلًا . ولم يمتحن محنة أبيه فى كربلاء ، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة وخذلوه ، ولم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبة التى اعتورت حياة ابنه - الإمام الصادق - أو خلافات بنى عمومته - أبناء الحسن - أو الإرهاب الفكرى أو الفعلى من الخليفة المنصور . فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه أهل البيت - من نسل الحسين - إلى العلم والتعليم ، ويبرز فيه العناية بفقه العبادات والمعاملات . وكثر ترديد اسمه مصاحبًا لاسم ابنه الإمام الصادق فى كتب الفقة الشيعى . وإليه يرجع أصحاب الكلام فى العقائد الشيعية ، وكثير من الفقه المستنبط من القرآن والسنة .

روى عنه جابر الجعفى أكثر من خمسين ألف حديث وروى عنه محمد ابن مسلم ثلاثين ألفًا . وكان عبد الملك بن مروان يعرف له حقّه ، وهو فى صدر شبابه ، فى حياة أبيه .

إليك أمثالاً لفكره فى السياسة والفقه والتفسير :

- روى الكسائى : دخلت على الرشيد فقال : هل علمت أوّل من سّن الكتابة على الذهب والفضة ؟ قلت : عبد الملك بن مروان . قال ما السبب ؟ قلت : لا أعرف

قال : كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر على دينهم . وكانت تطرز « أبًا وابنًا وروحًا » وتخرج من مصر تدور فى الآفاق . فأمر عبد العزيز - وكان عامله على مصر - بإبطال ذلك . وأن تطرز بصورة التوحيد . مشهدًا الله ألا إله إلا هو .. فلما وصلت القراطيس إلى ملك الروم كتب إلى عبد الملك إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبى . فاستشار عبد الملك ، فلم يجد عند أحد رأيًا ، فاستشار الباقر .

فقال له : لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين . الأولى : إن الله عزّ وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم . والثانية أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك . فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتمًا . كفّ عما تهدّد به .

- وفى الاحتكار ورفع الأسعار . يقول فى مسجد الرسول : قال رسول الله ﷺ وآله : « أيما رجل اشترى طعامًا فحبسه أربعين صباحًا ، يريد غلاء المسلمين ، ثم باعه فتصدق بثمنه ، لم يكن كفارة لما صنع » .

- واليمين عند الشيعة لا تنعقد إلّا قسمًا بالله وأسمائه الحسنى وصفاته الدالة عليه صراحة ، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل . سئل الباقر عن قوله تعالى : (والليل إذا يغشى) (والنجم إذا هوى) وما إلى ذلك فأجاب : إن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به .

- وسئل أبالناس حاجة إلى الإمام ؟ فأجاب : أجل . ليرفع العذاب عن أهل الأرض . وذكر قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) .

تعاقب على الخلافة فى حياة الباقر أربعة من أبناء عبد الملك وزوج ابنته عمر ابن عبد العزيز - خامس الراشدين فى مدة خلافته - وكان عمر يتردد على

الإمام الباقر يستنصحه . والباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين – فيقول له بين ما يقول : « أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدًا . وأوسطهم أخًا . وأكبرهم أبًا . فارحم ولدك . وصل أخاك . وبرّ والدك . فإذا صنعت معروفًا فربِّه » أى تعهده .

وكان نشر التشيع لأهل البيت همّه . قال سعد الإسكافى : قلت لأبى جعفر الباقر : « إنى أجلس فأقصّ وأذكر حقّكم وفضائلكم » قال : « وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعًا قاصًا مثلك » .

وحجّ هشام بن عبد الملك فى أيام ملكه (١٠٥ –١٢٥) فرأى الباقر بالمسجد يعلّم الناس فى مهابة وجلال ، تعاليم الإسلام وآدابه وفرائضه وأحكامه والناس خشع فى مجلسه . وغلبت هشامًا غريزة المعاجزة لأهل البيت . فبعث إليه من يسأله : ما طعام الناس وشرابهم يوم المحشر ؟ وأجابه الباقر بآيات الكتاب الكريم . واستطرد فى تعليمه وتعليم من أرسله .

وسمعه الحجيج – عامئذٍ – يقول للناس : « الحمد لله الذى بعث محمدًا بالحق نبياً وأكرمنا به . فنحن صفوة الناس من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه . فالسعيد من تبعنا . والشقىّ من عادانا » .

ورجع هشام إلى عاصمته .. فأرسل فى دعوة الباقر ، وابنه الصادق ، إلى قصبة الملك فى دمشق .

يقول الصادق : « فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثًا . ثم أدخلنا فى اليوم الرابع » .. وكأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة فى جوار البيت العتيق أو مسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها ، فى الحج الأكبر ، لأهل البيت ، فإن له بيتاً فى دمشق وحجابًا ومواعيد .

* * *

والباقر ، كالأئمة من أبنائه ، يفضلون عليًّا على سائر الصحابة . لكنهم لا يبرءون من الشيخين :

يقول لجابر الجعفى : « ياجابر بلغنى أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا

ويتناولون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . ويزعمون أنى أمرتهم بذلك .

فأبلغهم أنى إلى الله منهم برئ . والذى نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم . لانالتنى شفاعة محمد أبدًا إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما » .

وهو لا يترحم عليها فحسب . ولكنه يأمر تلميذه بأن يتولاهما . وأن يبرأ من أعدائهما . يقول لتلميذه سالم : « ياسالم . تولهما . وابرأ من عدوّهما . فإنهما كانا إمامى هدى رضى الله عنهما » . بل إنه يتخذ عمل أبى بكر حجة فى الفقه : سئل عن حلية السيف فجوزها ، قال : « لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سيفه » .

قال السائل : و تقول الصديق ؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : « نعم الصديق . فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً فى الدنيا والآخرة » .

وفى سنة ١١٤ اختاره الله إلى جواره لتبدأ إمامة ابنه جعفر الصادق .

الفصل الثانى

إمام المسلمين

« إن الله أراد منا شيئًا وأراد بنا شيئًا . فما أراده بنا طواه عنّا . ومماأراده منّا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا » .
« الإمام الصادق »

ولد الإمام الصادق فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ على قول ، أو غرة رجب . وفى أقوال أخرى أنه ولد سنة ٨٠ أو سنة ٨٣ . وتتابع بعده أبناء الباقر ، ولهذا يكنى الباقر أبا جعفر . أما أخوه الشقيق فعبد الله .

وأما أولاد الصادق فإسماعيل وعبد الله – وبه يكنى أبا عبد الله – وأم فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين .. بن الحسين بن علىّ ، وموسى « الكاظم » وإسحق ومحمد . وأمهم أم ولد ، تدعى حميدة . والعباس وعلىّ وأسماء من أمهات متفرقات .

واسم جعفر فى بيت زين العابدين مذكّر بأوّل الشهداء من بيت أبى طالب . فعلىّ هو الثانى فيه . والحسين هو الثالث .

أما الأوّل فجعفر بن أبى طالب قائد جيش مؤتة وشهيدها ، الطيار فى الجنة ، وذو الجناحين . كما وصفه رسول الله ﷺ – وكما روى البخارى ومسلم : قال له رسول الله « أنت أشبهت خلقى وخلقى » .

وهو أوّل زوج لأسماء بنت عميس[1] جدّة أم فروة أم : جعفر الصادق .

ولقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين ، والصديق مرتين ، ليدلّ التاريخ على أنه نسيج وحده . وأن كسرى يزد جرد ملك الفرس قد ولده مرتين . ليدل على أن الإسلام للموالى والعرب .

فالباقر – وهو من هو – أكفأ الناس لأم فروة[2] المنحدرة من صلب أبى بكر أوّل الخلفاء الراشدين ، والقاسم بن محمد[3] الذى يرشحه للخلافة عمر ابن عبد العزيز – خامس الخلفاء الراشدين .

وكأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته فى مقولتين صيرتاه ربانيًا من كل وجه . الأولى : « شيعتنا من أطاع الله » . والثانية : « إن الله خبأ رضاه فى طاعته . فلا تحقرن من الطاعات شيئاً فلعلّ رضاه فيه . وخبأ سخطه فى معصيته . فلا تحقرن من معصية شيئًا فلعلّ سخطه فيه . وخبأ أولياءه فى خلقه . فلا تحقرن أحدًا فلعله ذلك الولى » .

تلقى الصادق من أبيه كل ماوعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه . واستمع إلى

---

(١) يقال عن أمها « هند » أكرم الناس أحماء : أما أسماء فزوج جعفر ولها منه عبد الله وزوج أبى بكر ولها منه محمد . وزوج علىّ ولها منه يحيى . أما أخواتها فميمونة أم المؤمنين ولبابة زوج العباس عم النبى وجدة خلفاء الدولة العباسية . وسلمى زوج حمزة بطل أحد وشهيدها وعم النبى . وأم الفضل الكبرى « أخت أسماء لأمها » أم خالد بن الوليد . وهكذا تتصل بأسماء بنت عميس أسماء هىَ أحرف الهجاء فى تاريخ الإسلام : النبى وعميه وابنى عمه والصديق وسيف الإسلام خالد .

(٢) حجت أم فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لا يعرفها : ياأمة الله أخطأت السنة ! فأجابت ياهذا إنا عن علمك لأغنياء .

(٣) وللقاسم وأبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة . إذ ضمته إليها بعد مقتل أبيه محمد ، على أيدى جند معاوية . ومحمد ربيب على . سيره معها بعد وقعة الجمل إلى المدينة فى كوكبة فى النساء فى ملابس الرجال . وكان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم المؤمنين .

وفى بيت عائشة سقى القاسم علمها الذى أراد عمر بن عبد العزيز تدوينه عن طريقه ، وعمر خليفة ، حتى لا يضيع علم المدينة . فكتب بذلك إلى قاضيه ووالية على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

وسنرى الإمام جعفر الصادق يروى عن خاله عبد الرحمن بن القاسم وعن عروة بن الزبير « ابن أسماء أخت عائشة » . وعروة من كبار رواتها ورواة الصحابة .

علماء العصر . وانتفع بعلوم جده لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر (١٠٦) وكان مثلا عاليًا للأمة وواحدًا من الأعمدة السبعة المسمين « علماء المدينة السبعة » .[1] يعلن عمر بن عبد العزيز أنه « لولا خوف الفتنة من بنى أمية لاستخلفه على الأمة » ويوصى عمر عماله أن يكتبوا السنن من عنده . فهذا رجل له ورع عمر بن عبد العزيز ، وعنده كل علم المدينة ، وإنه ليستطيع أن يقول – من صلة على الوثقى بأبيه محمد بن أبى بكر – إنه أوثق أهل بيته صلة برسول الله ﷺ . وبأول من تبعه ، عليًّا كان أو أبا بكر . بل بهما معًا .

وعندما نذكر أن القاسم بن محمد ظل مصدرًا للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته ، وأن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن عباس ، (١٠٤) وعطاء بن أبى رباح ، بمكة حيث كان يجلس ابن عباس ، وأن أوامر الولاة فى الموسم كانت « لا يفتى الناس إلّا عطاء » ، كما شهد بالمدينة حلقة عبد الله بن أبى رافع – مولى أمير المؤمنين على – الذى أملى علىّ عليه كتابه إلى معاوية ، وحلق خاله عبد الرحمن بن القاسم ، وعروة بن الزبير (٩٤) الراوية عن خالته عائشة ، ومحمد بن المنكدر (١٣٠) شيخ مالك ، فليس علينا أن نحاول البحث عما تلقاه جعفر بن محمد الصادق فى صباه .

ولقد كان علم أهل البيت حسبه – فكيف إذا اجتمع إليه علوم هؤلاء ، ليملأ بالفقه الشيعى وبالفقه المقارن مدينة الرسول ، من يوم مات أبوه وهو بعد فى ثلاثيناته .

والصبّى من « أهل البيت » لا ينفق صباه فى « عمل لا شىء » فذلك هو اللهو . أو فى « عدم عمل شىء » . فهذا هو الفراغ .. وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات فى تعاقب الإمامة . لا تدع لهم محيصًا عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم ، فوق علمهم . وماهو إلّا القرآن والسنّة والسيرة . والقرآن

---

(١) يقول فيه يحيى بن سعيد (١٤٣) تلميذ فقهاء المدينة السبعة : « ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم » وابن حنبل يقول فى يحيى « أثبت الناس » .

كما يقول ابن عباس « فى بيتهم نزل » . والسنّة من بيتهم صدرت . والسيرة سيرتهم .

واللغة طريق ذلك كله ، وهى بعد حصيلته ، وإنك لتدرك منزلة جعفر ابن محمد فى البيان العربى من تداوله للتفسير فى اقتدار على تخريج المعانى لا قرين له . وسنراه غدًا عمدته النصوص فى الفقه والدين ، يستخرج منها أعمق المعانى بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، شأن أمراء البيان . ومن تكن النصوص عمدته الأولى ، فالبلاغة عدّته الكبرى .

ولئن لم يتميز الأطفال أو الصبية فى بيت زين العابدين والباقر بخصوصيات تكبر وتنمو فتبرز إذ هم شيوخ وأئمة ، إن بيت زين العابدين ذاته كان « خصوصية » فى مجتمع الإسلام . فيه المثل الأعلى من العلم المحيط والورع الكامل والتفرغ للخدمة العامة ، وتعلق القلوب به ، واتجاه الأبصار تلقاءه . على هذا درج بيت زين العابدين ، مع الاستمرار والاستقرار . فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد فى سنة ١٢١ ، بعد إذ خذله أهل الكوفة فى مخرجه ، فمصرع ابنه يحيى . وحمل الصادق التبعة فى ذوى رحمه - منذ صار إمامًا بوفاة الباقر سنة ١١٤ - فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد ، ويأسو جراحات من سقط أباؤهم فى الحرب من رجال زيد ، فبعث ألف دينار فرّقت فى ورثتهم .

* * *

وليس أحد بحاجة فى ترجمة أئمة أهل البيت ليسترسل فى وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء ويعلمها .

فلنستحضر ، ونحن فى بيت النبى ، ما كان يصنعه النبى ، ولنتيقن أن الإمام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره . ولنستحضر فعال علىّ وزهراء النبى ، والحسن والحسين ، وزين العابدين ، والباقر . فهى أصول يتلقاها الخلف عن السلف ، ليعملوا بها ، ثم يعلّموا بها .

وربما أجزأ فى هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم « الشخصية » . وفيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره .

فحياة الإمام مدرسة وتطبيقاتها . والعمر أيام تتكرر . والحياة جماع أعمال يدل بعضها على البعض الآخر . ومنها الجزئى الذى يستنبط منه الكلىّ . وكثيرًا ما كان العمل الواحد « ردّ فعل » عفوىّ أو فورى ، صادرًا من عدّة قواعد يجرى عليها العقل أو الشعور أو السليقة أو الطريقة – فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان .

١ – مات بين يدى الإمام ولد صغير . فبكى وقال : « سبحانك ربى لئن أخذت لقد أبقيت . ولئن ابتليت لقد عافيت » .

وحمله إلى النساء . وعزم عليهن ألّا يصرخن . وقال « سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلّا حبًّا . إنا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا . فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا » .

فأى قلب ، فى اطمئنانه واتزانه ، كمثل ذلك الذى يفيض بالشكر ، حيث يغيض الصبر عند الغير !.

٢ – ونهى أهل بيته عن الصعود – فدخل يومًا فإذا جارية من جواريه تربى بعض ولده ، قد صعدت السلم ، والصبى معها . فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها وسقط الصبى من يدها . فمات . فخرج الصادق متغير اللون . فسئل عن ذلك فقال : « ما تغير لونى لموت الصبى . وإنما تغير لونى لما أدخلت على الجارية من الرعب » ثم قال لها بعد ذلك : « أنت حرّة لوجه الله . لا بأس عليك » .

فهذا أمر واحد عادى ، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية ، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلّا عن الإمام . فى كل واحدة منها أنواع فضائل . تبدأ باحترام إنسانية الإنسان . وتنتهى بعطاء ، دونه كل عطاء ، يختمه بالكلمة الطيبة – لا بأس – ويبدؤه بأعلى القيم الإنسانية . إذ يمنحها حريتها .

٣ – وذهب مرة يعزّى أحد المصابين بفقد ولده . وانقطع فى الطريق شسع نعله ، فتناوله من رجله ومشى حافيًا . فخلع ابن يعفور شسع نعله وقدمه له . فأعرض عنه كهيئة المغضب وقال : لا . فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها ..

فالإمام لا يلقى متاعبه على أحد دونه . بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل ، ولزوم التحمل . وليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل . وليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان . وأحق الناس به من أتيحت الفرصة له .

٤ – وذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام . فراجعه حُضّاره متسائلين بين يديه : أليست السنّة أن يسلّم الرجل أولاً ، ثم يدعى للطعام ؟ فأجاب الإمام « هذا فقه عراقى فيه بخل » .

ففقه الإمام « علوىّ » يبدأ بالعطاء . وعملىّ فيه مبادرة . واجتماعى يسعى به المعطى إلى الآخذ . وإسلامىّ ، إنسانى ، كله كرامة .

لقد ولد فى دار شعارها البدار ، بالعطاء مع الإخفاء . حتى الصدقة يقول فيها الباقر : « أعط ولا تسم . ولا تذل المؤمن » .

وفى ذلك السنّة .. وسنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه فى المنهج الاقتصادى ..

٥ – وصحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه « الكمر الذى يلفه المحرم حول بطنه وفيه نفقته من النقود » فخرج فوجد الإمام الصادق يصلّى فتعلق به وهو يقول : أنت أخذت هميانى .

قال الصادق : كم كان فيه ؟ قال : ألف دينار . فأعطاه ألف دينار . ومضى الرجل فوجد هميانه فرجع يعتذر ويردّ ألف دينار . فأبى الصادق أن يأخذها وقال : شىء خرج من يدى فلا يعود .

قال الرجل لمن حوله : من هذا ؟.

قالوا : جعفر الصادق . قال : لا جرم هذا فعال مثله .

فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم ، فلا ينماز منهم ، حتى ليخطئ الجاهلون منهم فى شخصه . فيعرض عن الجاهلين . ويخفّ ليخفّف كرب المكروب ، لا يحزنه وهمه أو اتهامه ، وإنما تحزنه همومه . فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرى .

والناس أسمع للصوت الذى لا صرير له . وأبصر بالإخلاص الذى لا يتصايح صاحبه به . والأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمسة .

ولا نستطرد فى السرد . ففى كل واقعة سلفت « عدسة » صغيرة تريك العالم الكبير الذى وراءها ، من مناقب كالنجوم وإن كان أصحابها من البشر .

هذه سماء تسعى على الأرض . وهؤلاء بقية النبى عليه الصلاة والسلام ، يعيشون فى الدنيا !

مجالس العلم :

شهد الإمام الصادق انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين ، ورأى بعين الصبى المأمول من أهل بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبد العزيز فى خلافته بين سنتى ٩٨ ، ١٠١ إذ أعاد الدين غضًا فى نحو من ثلاثين شهرًا ، وأثبت للدنيا ، أن « المدة » كما سمى الناس خلافته ، كانت كافية لتعيد الناس إلى الإسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم ، يتخذ الخلافة - كما قال - سبيلًا إلى الجنة .

وكان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع فى أوّل يوم ولى الخلافة . قال له ابنه عبد الملك : «ياأبت ما بالك لاتنفذ الأمور ، فو الله لا أبالى فى الحق لو غلت بى القدور » لكن عمر يتأتى للأمور فى رفق وأناة وإصرار . قال : « لا تعجل يابنى إن الله تعالى ذمّ الخمر مرتين ، وحرّمها فى الثالثة . وإنى أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة ، فيدفعوه جملة ، فتكون فتنة » . وبهذا قدر على أن يردّ المظالم وأغنى الله الناس على يديه . فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزع المال عليهم . فى المدينة أو فى القرية .

لكن الإمام « الصادق » تعلّم من حياة الخليفة الصادق العزم : أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته ، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وتتابع الباقون يدمرون .

وشهد الإمام الصادق مقدم بنى العباس وكيف ناقضوا شعارات دولتهم وحكموا حكم جاهلية .

هكذا رأى رأى العيان أن صلاح الأمر لا يكون بتولّى السلطة ، أو بمجرد إصلاحها مدّة قصيرة أو طويلة . وإنما الصلاح فى إصلاح الأمة فكيفما تكونوا يول عليكم . ولكل أمة الحكومة التى تستحقها .. واستيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجدّه ، وهو أن يعلّموا الأمة . فإذا تعلّمت صلحت فلم يستضعفها حكّامها . وهى عندئذ تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشركهم تبعاتهم . فالأمة القوية لا تظلم حكامها ولا يظلمونها .

وبشعار الثقة بالله سبحانه « الله وليى وعصمتى من خلقه » وبنقش الخاتم الذى يعلن مصدر قوته « ما شاء الله . لا قوة إلا بالله . استغفر الله » . قصد إلى مجلس العلم ، فى مسجد النبى أو فى داره ، يستعمل البعد المكانى ، حيث يجلس للتعليم فى مدينة الرسول ، والبعد الزمانى ، فهو تابعى يعيش فى جيل التابعين وتابعى التابعين ، والبعد الثالث وهو ارتفاع نسبه إلى النبى وعلىّ .

أما البعد الرابع فعمق علمه وعلم أبيه وجدّه .

* * *

فى هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة ، يجلس رجل ربعة . ليس بالطويل ولا بالقصير . أزهر له لمعان كالسراج . يسعى نوره بين يديه . رقيق البشرة ، أسود الشعر جعده ، أشم الأنف . أنزع قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهرًا ، له إشراق . وعلى خدّه خال أسود – المسلمون أيامئذ أحوج إليه ليعلّمهم ، منهم إليه ليحكمهم .. كل ما يحيط به يوحى بالرجاء فى فضل الله . فلما طعن فى السن زاد جلالا وسناء وإحياء للأمل .

يلبس الملابس التى عناها جدّه عليه الصلاة والسلام حينما قال : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ولا مخيلة » .

رآه سفيان الثورى وعليه جبة خز دكناء فقال : يابن رسول الله ما هذا

لباسك ! فقال : « ياثورى . لبسنا هذا لله ، ثم كشف عن جبة صوف يلبسها ، وقال : ولبسنا هذا لكم » .

كان جدّه علىّ يختار الخشن من الألبسة .. ويلح الجوع عليه فيعلل معدته بقرص شعير . يخيط نعله إن لم يكن مشغولا ، أو يتركه لمن يخيطه بأجر إذا انشغل . لكن الزمان يتغير فيغير الصادق ليظهر أثر النعمة . ويقول للناس : « إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحبّ أن يراها عليه لأن الله جميل يحب الجمال » .

ويقول : « إن الله يحب الجمال والتجمل ، ويكره البؤس والتباؤس .. » .

والنظافة من الإيمان . فيها الكرامة والسلامة للنفس وللأسرة وللمدينة . فعلى المرء كما يقول الإمام : « أن ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويجصص داره ويكنس أفنيته » .

وذات يوم رآه « عباد بن كثير البصرى » فى الطواف فقال له : تلبس هذه الثياب فى هذا الموضع وأنت فى المكان الذى أنت فيه من علىّ ؟ فأجاب كما يروى الإمام نفسه فقلت : فرقبى - نسبة إلى « فرقب » حيث تصنع ثياب كتان أبيض - اشتريته بدينار . وقد كان علىّ فى زمن يستقيم له ما لبس فيه . ولو لبس مثل ذلك اللباس فى زماننا لقال الناس : هذا مرائى مثل « عباد » ..

قيل له يومًا : كان أبوك وكان ... فما لهذه الثياب المروية « حريرمرو »

فأجاب : ويلك فمن (حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ؟

وإنك لترى آثار النعمة على مالك وأبى حنيفة ، وإجابات مشتقة بدقة من هذه الإجابات ، فى ردود الرجلين بشأن ملابسهما وأنعم الله عليهما - وكان كلاهما لبّاسًا - فالمذموم من الثياب ما فيه خيلاء . والمحمود ما كان إظهارًا لنعمة الله على عبده . حتى تلميذه العظيم الثالث سفيان الثورى - وهو إمام الزهد والورع والحديث والفقه - قد انتفع بدروس الإمام فى الملبس فأمسى يقول : الزهد فى الدنيا هو بقصر الأمل . ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ .

ازهد فى الدنيا ثم نم . لا لك ولا عليك . إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا . وان الرجل ليكون فقيرًا وهو راغب فيها .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يلبس ماتيسّر من الصوف تارة ومن القطن تارة ومن الكتان تارة . وكانت مخدّته من أدمٍ حشوها ليف نخل . ولما قال له رجل يارسول الله أنا أحب أن يكون ثوبى حسنًا ونعلى حسنة . أفمن الكبر ذاك ؟ قال : « لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ولم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى . لا يعيب صاحب الخزّ على صاحب الصوف ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخزّ .

* * *

فى هذا المجلس تتلمذ للإمام جعفر وروى عنه – كما يقول أرباب الإحصاءات – أربعة آلاف من الرواة وكتب عنه أربعمائة كاتب . كلهم يقول : قال جعفر بن محمد .

فأى مجلس كان ذلك المجلس ! تتراءى فيه أشياء من رسول الله ﷺ . بعضها مادّى يجرى فى أصلاب رجل بعد رجل . وبعضها معنوى يتراءى فى معانيه وفحوى مقولاته ، لكل هؤلاء .

ليس بالمجلس لجاجة ولا حجاج عقيم . يقول للتلامذة : « من عرف شيئا قلّ كلامه فيه . وإنما سمى البليغ بليغًا لأنه يبلغ حاجته بأدنى سعيه » .

إذا سأل سائل عن خلافات الصحابة أجاب : « علمها عند ربى فى كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى » .

يهتدى بهديه الكبراء فى الامتناع عن الجواب فى خلاف الصحابة . يقول أحمد بن حنبل إذ يسأل عما كان بين الصحابة : كان بينهم شىء الله أعلم به . ومع ذلك يعجب ويتساءل عن طلحة والزبير : أكانا يريدان أعدل من على ؟

ولا يضيع الحق فى المجلس : سمع أن أحد الولاة نال من أمير المؤمنين علىّ ..! فوقف الصادق فقال : « ألا أنبئكم بأعلى الناس ميزانًا يوم القيامة

وأبينهم خسرانًا ؟ من باع آخرته لغيره .. وهذا هوالفاسق » .

وعرف الناس الفاسق الذى باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم فى علىّ ابن أبى طالب .

والمقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله والرسول . يقول ويروى عن آبائه عن أمير المؤمنين على : « قال رسول الله ﷺ : لا قول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بنية . ولا قول ولا عمل ولانية إلّا بإصابة السنّة » .

والقاعدة هى المساواة بين الناس ، مساواة فطرية - مهما اختلفت العقائد والأجناس - يقول : « الناس فى آدم مستوون » . حتى عبدة النار يقول فيهم : « سنّوابهم سنّة أهل الكتاب » .

وللنساء والبنات عنده المكانة العالية . قيامًا بوصية جدّه بالنساء فى آخر خطبه عليه الصلاة والسلام - روى الجارود بن المنذر : قال لى أبو عبد الله الصادق : « بلغنى أن لك ابنة فتسخطها . ما عليك منها ؟ ريحانة تشمها . قد كفيت رزقها . وقد كان رسول الله أبا بنات » .

وأى مثل فى الإسلام كمثل رسول الله . وأى نعمة أن يكون للمرء ريحانة أو رياحين ! وأى فضل كفضل البنات يكفى رزقهن الله ! يقول الصادق . « إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه وتندبه بعد موته » لينبّه على بقاء الوفاء فى أفئدة البنات بعد الممات .

ومن الدروس الأولية فى هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق ، ومجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة . وبهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعى مجتمع العاملين ، وبلغ حظّه - حيثما كان - من النماء ، والاستغناء ، والانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب ، وأتاح لهم من وسائل .

جاء مجلس الإمام يومًا جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشف والزهد الكامل . فقال لهم :

حدثنى أبى أن رسول الله ﷺ قال : ابدأ بمن تعول . الأدنى فالأدنى .. هذا ما نطق به الكتاب ردًّا لقولكم .. قال العزيز الحكيم : (والذين إذا أنفقوا لم

يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

أفلا ترون أن الله تعالى قال غير ما أراكم تدعوننى إليه ؟... فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير . فلا يعطى جميع ماعنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له . للحديث الذى جاء عن النبى : « إن أصنافًا من أمتى لا يستجاب دعاؤهم : رجل يدعو على والديه . ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه . ورجل يدعو على زوجته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده . ورجل يقعد فى بيته ويقول : رب ارزقنى ، ولا يطلب الرزق ، فيقول الله عز وجل : ياعبدى ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب ... ألم أرزقك رزقًا واسعًا ؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك ولم تسرف فيه وقد نهيتك عن الإسراف . ورجل يدعونى فى قطيعة رحم ... » ثم علّم الله عزّ وجل كيف ينفق فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا) فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب . والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين ... وفيهم سلمان الفارسى وأبو ذر رضى الله عنهما :

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل . فقيل له : ياأبا عبد الله أنت فى زهدك تصنع هذا وأنت لا تدرى لعلك تموت اليوم أو غداً ؟ فكان جوابه أنه قال : ترجون لى البقاء وقد خفتم علىّ الفناء . أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها ما لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه . فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت .

وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ، ويذبح منها إذا اشتهى اللحم ، أو نزل به الضيف .. ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهما رسول الله ما قال .. ولم يبلغا من الزهد أن صارا لا يملكان شيئًا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم .. ويؤثرون على أنفسهم وعيالهم ... .

فالإمام يريد مجتمعًا عامًلا ، متواصًلا ، فيه قصد وجدّ . فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده .

التلاميذ الأئمة :

كان سفيان الثورى إمام العصر فى الورع والسنن والفقه ، للعراق كافة . وكانت له فى مجابهة الخليفة مواقف لا يملّ الحديث فيها . وكان كثيرون من رواد المجلس كسفيان مكانة فى المسلمين : منهم عمرو بن عبيد الذى نشأت على يديه فرقة المعتزلة ، وأبو حنيفة ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ترب أبى حنيفة ، وإمام المدينة مالك بن أنس .

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنّة . ومالك أكبر من تلقى عليه الشافعى علمًا . وأطولهم فى تعليمه زمانًا . والشافعى شيخ أحمد بن حنبل .

وكمثلهم كان المحدثون العظماء : يحيى بن سعيد محدّث المدينة وابن جريح وابن عيينة محدثًا مكة . وابن عيينة هو المعلّم الأوّل للشافعى فى الحديث .

فلندع للأئمة وصف مكانهم من الإمام – وفيه وصف مجالس علمه :

يقول مالك بن أنس : « كنت أرى جعفر بن محمد . وكان كثير الدعابة والتبسم . فإذا ذكر عنده النبى اخضر واصفر . ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلّا على الطهارة . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء والعبّاد والزهاد الذين يخشون الله . وما رأيته قط إلّا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتى » .

وفى مقولة أخرى يضيف مالك : « وكان كثير الحديث ، طيب المجالسة ، كثير الفوائد ، إذا قال : « قال رسول الله » اخضرّ مرّة واصفرّ أخرى حتى ينكره من يعرفه . ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام ، كلما هم بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه ، وكاد أن يخرّ عن راحلته . فقلت : يابن رسول الله . أولا بد لك أن تقول ! قال : كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عزّ وجل : لا لبيك ولا سعديك » ..

وإنا لنذكر ما كان يصنعه جدّه زين العابدين فى هذا المقام .

وأصبح مالك إذا ذكر النبى اصفر لونه . فإذا تساءل جلساؤه قال : لو رأيتم

ما رأيت لما أنكرتم علىّ ما ترون . ويذكر لهم حال ابن المنكدر[1] ثم يعقب بحال جعفر .

إنما كان مالك يجد ريح الرسول فى مجلس ابن بنته .. ويحسّ ، أو يكاد يلمس ، شيئًا ماديًّا ، يتسلسل من الجد لحفيده ، وأشياء غير مادية تملك اللب والقلب : فالرؤية متعة والسماع نعمة . والجوار - مجرد الجوار - تأديب وترييب ... وفى كل أولئك طرائق قاصدة إلى الجنة .

وصاحب المجلس طهر كله . لا يتحدث عن جدّه إلّا على الطهارة يقول : « الوضوء شطر الإيمان » ومن أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أو فى مذهبه ، مجرد وسيلة لغيره - أى للصلاة - بل أمسى مستحبًّا لذاته كالصلاة المستحبّة . يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد ، وقراءة القرآن ، بل الزوجان ليلة زفافهما ، والمسافر إلى أهله .. والقاضى ليجلس للقضاء ، والإمام الذى يفتى أو يعلّم .

وما هو ببدع أن يشغف به مالك - وهو الأموى بهواه - فإنما هو حب الرسول وأهل بيته . فحبّهم إيمان . وما كان تعبير مالك إلّا حبًّا ، وهو - بعد - التلميذ النجيب لفقهاء بنى تيم « قبيلة أبى بكر » سواء كانوا من مواليهم - كربيعة الرأى - أو من أنفسهم كمحمد بن المنكدر ، أو أمهم منهم ، كالإمام جعفر .

وأبو بكر الصديق يقف فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك باتباعه واجتهاده وأبنائه وبنى تيم ..

تعلّم مالك الكثير من السلوك على الإمام جعفر فكان إذا حدَّث لا يحدِّث إلّا على الطهارة . ويحمى مجلسه ممن يخرجونه عن قصده . كما يكرم تلامذته .

---

(١) محمد بن المنكدر (١٣٠) من معادن الصدق بالمدينة وأشياخ مالك ، من بنى تيم قبيلة أبى بكر ، وهم مشهورون بالرقة والورع . وهم أجداد الامام جعفر - كان لا يسأل ابن المنكدر أحد عن حديث إلّا بكى . ومالك يقول : « كنت إذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسى أيامًا » .

وابن المنكدر يقول : « كابدت نفسى فى ذلك أربعين عامًا حتى استقامت » . وكان من بنى المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء : محمد وأبو بكر وعمر أبناء المنكدر .

بل صار إمامًا لليسر الذى تتمثل فيه خصائص المدينة . وأمسى عنوانًا على العلم : فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب . وفى منهجه الاحتفال الكامل بالواقع . وفى طريقته العمل للرزق ، حتى لا يحتاج لأحد ، مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق .

وكهيئة الإمام الصادق ، لم يجار فقهاء العراق فى قولهم أرأيت أرأيت . أى افتراض الفروض واستباق الحوادث وإبداء الرأى فيما لم يحدث حتى سماهم خصومهم « الأرأيتيين » .

ومن رضا الإمام عن التلميذ كان « الصادق » يشير بإتيان حلقة مالك . روى عنوان البصرى أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان إلى مجلسه . فنصحه أن يجلس إلى مالك.

ولقد يدخل الإمام المسجد – فيقدم إليه تلميذ من تلاميذه ابن أبى ليلى[1] (١٤٨) قاضى الكوفة . فيقول الإمام : أنت ابن أبى ليلى القاضى ؟ ويجيب : نعم . فينبهه الإمام على جلال خطر القضاء بقوله : « .. تأخذ مال هذا وتعطيه هذا . وتفرّق بين المرء وزوجه لا تخاف فى ذلك أحدًا ... فما تقول إذا جيء بأرض من فضّة وسماء من فضّة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدى ربك فقال : ياربى هذا قضى بغير ما قضيت ! » .

واصفر وجه ابن أبى ليلى مثل الزعفران . لكنه خرج من المسجد مزوَّدًا بزاد من خشية الله زوّده به ابن رسول الله .

ولما سئل مرّة : أكنت تاركًا قولاً أو قضاءً لرأى أحد ؟ أجاب : لا .

---

(١) أوّل من تعلم عليه أبو يوسف صاحب أبى حنيفة هو محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وفى الخلاف بينه وبين أبى حنيفة وضع أبو يوسف كتابه الشهير اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى . وكثيرًا مارجح فيه آراءه . ومن ذلك أخذه برأيه فى قضية رفعت على الخليفة الهادى أمامه . وبهذا دفع الخليفة لصاحب الحق حقه « راجع أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح للمؤلف ص ١٠٧ طبعة دار المعارف » .

إلا لرجل واحد . هو جعفر بن محمد الصادق .
وابن أبى ليلى قاضى بنى أمية وبنى العباس . وهم أعداء الإمام .

* * *

فى هذا المجلس بالمدينة ، أو بالكوفة فى أحدى قدمات الإمام جعفر إلى العراق ، دخل أئمة الكوفة مجتمعين : أبو حنيفة وابن أبى ليلى وابن شبرمة (١٤٤) على الإمام جعفر . فجعل الصادق ينبه أبا حنيفة مكتشف أداة « القياس » ، على خطرها فى حضور العالمين الآخرين . وفى مواجهة هذين يقول الإمام الصادق لأبى حنيفة : « اتق الله ولا تقس الدين برأيك » .

ولقد يكون أبو حنيفة فى حلقته بالكوفة أو فى المدينة فيقف عليها الإمام الصادق ، ولا تقع عليه عين أبى حنيفة ، فإذا لمحته عيناه هبّ أبو حنيفة واقفاً وهو فى مجلس الدرس ، فقال : « ياابن رسول الله - لو شعرت بك أوّل ما وقفت ما رآنى الله أقعد وأنت قائم » ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس والإمام قائم .

وأبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠) أكبر عمرًا من الإمام الصادق .

لكن الصادق يشدّ أزره بعبارات مشجعة . فيقول له : « اجلس ياأبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائى » يريد بذلك إعظام مجالس العلم . ووقوف الجميع . وجلوس الأستاذ .

انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة ، وفيهما يقول : « لولا العامان لهلك النعمان » - وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلّا بقوله : « جعلت فداك ياابن بنت رسول الله » .

ولقد يتحدّى الإمام الصادق فى مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأى صاحب الرأى فيسأل : ما تقول فى محرم كسر رباعية الظبى . ويجيب أبو حنيفة : ياابن رسول الله لا أعلم مافيه . فيقول له الإمام الصادق : أنت تتداهى . أو لا تعلم أن الظبى لا تكون له رباعية ! .. وإنما سكت أبو حنيفة لأنه لم يعلم كما قال ، أو لأنه يمتنع عن أن يصحح للإمام السؤال . وما كان أعظم أدب أبى حنيفة بين

نظرائه . فما بالك به بين يدى الإمام .

فإذا جاء ابن شبرمة وحده يسأل عما لم يقع - كدأب تلاميذ أبى حنيفة ومدرسة الكوفة - لم يتردد الإمام فى دفعه . بالحسنى :

ذهب إليه ذات يوم يسأله عن القسامة فى الدم فأجابه بما صنع النبى . فقال ابن شبرمة : أرأيت لو أن النبى لم يصنع هذا ، كيف كان القول فيه ؟ فأجابه : أمّاما صنع النبى فقد أخبرتك به . وأما مالم يصنع فلا علم لى به .

والصادق عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء ، أى بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة ، وهو يروى عشرات الآلاف من الأحاديث ، فى حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه ، حتى صوّبهم الشافعى فى نهاية القرن ، بالقوّة التى لا نزاع فيها لخبر الواحد ، وبوضع قواعد القياس .

والحسن بن زياد اللؤلؤى يعلن رأى صاحبه فى إحاطة الإمام الصادق فيقول : « سمعت أبا حنيفة وقد سئل : من أفقه الناس ممن رأيت ؟ فقال : جعفر بن محمد » .

ولما استفتى أبو حنيفة فى رجل أوصى « للإمام » بإطلاق الوصف ، قال : إنها لجعفر بن محمد . فهذا إعلان لتفرّده بالإمامة فى عصره ..

ولم تكن السنتان اللتان حيى بسببهما النعمان بن ثابت « أبو حنيفة » ولم يهلك ، إلّا تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة . ومن ذلك كان يشدّ أزر زيد بن علىّ فى خروجه على هشام بن عبد الملك . وقيل مال إلى محمد وإبراهيم « ولدى عبد الله بن الحسن » فى خروجهما على المنصور . وأن قد جاءته امرأة تقول إن ابنها يريد الخروج مع هذا الرجل - فى إبان خروج إبراهيم - وأنا أمنعه . فقال لها : لا تمنعيه .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى عن أبى إسحق الفزارى : جئت إلى أبى حنيفة فقلت له : أما اتقيت الله . أفتيت أخى بالخروج مع إبراهيم حتى قتل !! فقال : « قتل أخيك حيث قتل ، يعدل قتله لو قتل يوم بدر . وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة » .

ولئن كان مجدًا لمالك أن يكون أكبر أشياخ الشافعى ، أو مجدًا للشافعى أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل ، أو مجدًا للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين ، إن التلمذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنّة . أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان والإمام مبلّغ للناس كافة ، علم جدّه عليه الصلاة والسلام . والإمامة مرتبته . وتلمذة أئمة السنّة له تشوّف منهم لمقاربة صاحب المرتبة .

لقد يجىء للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة ، الذى لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة فى إبان مناظرته : يافتى تتكلم فى مسألة من مسائل العلم وتضحك ؟، والذى يبلغ من وقاره أن يراه الرائى فيحسبه أقبل من دفن والديه . فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام : « هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم فى الفضل والعلم » .

ويجىء إمام خراسان عبد الله بن المبارك ، وهو إمام فقه ، وبطل معارك ، تلمذ للإمام زمانًا ولأبى حنيفة ، فتعلّم ما جعله يخفى بطولاته فى الفتوح « لأن من صنعها لأجله - سبحانه - مطلع عليها[1] » . وفى الإمام جعفر شعره الذى ورد فيه :

أنت ياجعفر فوق الـ مدح . والمدح عناء
إنما الأشراف أرض ولهم أنت سماء

---

(١) استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم . فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه وتتابع وراءه المسلمون واختفى الفارس فى الجند . ولما سئل ابن المبارك فيما بعد ، عن إخفاء نفسه ، قال : « لأن من صنعت ذلك لأجله - سبحانه - مطلع عليه » .

وخرج إلى الحج فمرّ بامرأة رآها تخرج غرابًا ميتًا من حيث ألقى به . فسألها فقالت إنها وزوجها لا يجدان ما يطعمانه . فقال لوكيله : كم معك من نفقة الحج ؟ قال : ألف دينار . قال : « عدّ منها عشرين تكفى للعودة إلى مرو « عاصمة خراسان » وأعطها الباقى . فهذا أفضل من حجنا هذا العام » . ورجع ولم يحج .

وكان الرشيد بالرقة يومًا وأقبل عليها ابن المبارك . فانجفل الناس خلفه ورأته أم ولد الرشيد فقالت : هذا والله الملك . لا ملك هارون الذى يجمع الناس بشرطة وأعوان .

ولما مات ابن المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه .

فإذا كان الصادق فى مواجهة مع المنصور ، حيث القواد والعلماء يجلسون على مبعدة منه ، فإن مجلس الإمام عن يمينه . حتى ولو دعاه يخوفه . فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الإمام من حديث رسول الله ، ولحديث رسول الله شرف المجلس ، ولابن رسول الله شرف من رسول الله .

ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة ، لكان الشرف حيث يجلس . وربما قرّبه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى إلى الناس فى الدنيا ، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا ، وعندما تلتمس الشفاعة .

وأبو جعفر المنصور يقرّ بمكانه من العلم والتقوى مع ضيق صدره بمكانته فى الأمة . يقول : « هذا الشجى المعترض فى حلقى أعلم أهل زمانه . وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا » .

ومن نصّ الإقرار ما يدل على أن مجلس « الصادق » للعلم ، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان ، وصاحب المجلس شجى معترض فى حلقه . وهو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقى دروسه ، مع الحيطة الواجبة ، حتى لا يغصّ الخليفة بريقه مما ينقل إليه ، وإن كان المؤكد أن مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض .

كل العلوم :

والمجلس مورد عذب كثير الزحام – لكل فيه ما يغنيه – فالإمام فى مجلسه الرفيع يروى السنّة عن آبائه . وما يقوله يجرى عند الشيعة مجرى الأصول . فإذا أبدى الرأى فى واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السنّة والتزموها باعتبارها نصًّا عنه .

أما أهل السنّة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة .

واللسان العربى علم العلوم . وإمام المسلمين إمام فى البلاغة العربية ، عبّر عن أسلوبه أبو عمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية : « العرب تطيل

ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها » .

وعند الصادق لكل مقام مقال . يسهب ويستطرد كما ستقرأ ، بعد ، أو يوجز ليحفظ عنه ويتذوّق منه ، بحروف لها جرس فى الأذن ونغم فى الفم . كأن يقول : « لا تصلّ فيها خفّ أو شف » . وكلاهما كاشف .

ويجرى على لسانه الشعر الرفيع مثل الذى يرويه عنه سفيان الثورى :

لا اليسر يطرؤنا يومًا فيبطرنا ولا لأزمة دهر نظهر الجزعا
إن سرّنا الدهر لم نبهج لصحته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار أوّلنا إذا تغيب نجم ، آخر طلعا

أو مثل قوله جوابًا لسفيان إذ يسأل : يا ابن رسول الله لم اعتزلت الناس ؟ قال « يا سفيان قد فسد الزمان وتغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد » وأنشد :

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودّة والصفا وقلوبهم محشوّة بعقارب

ومثل قوله :

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا فقد أيسرت فى زمن طويل
ولا تيْئَس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
ولا تظنن بربك ظنّ سوء فإن الله أولى بالجميل

ومثل قوله :

لا تجزعن من المداد فإنه عطر الرجال وحلة الآداب

فإذا جاءه المناظرون من كل فجّ عميق ، أو التلاميذ الفقهاء ، يمثلون أقطار الإسلام ، ويجادلون فى الأصول أو الفروع ، فهو البحر لا تنزفه الدلاء . يروى العقول ويشفى الصدور .

فالديصانى ، زعيم فرقة ملحدة ، وصاحب الإهليلجة طبيب هندى .

وعبد الكريم بن أبى العوجاء[1] عربى ملحد . وعبد الملك مصرى يتزندق . وعمرو بن عبيد شيخ المعتزلة . وأبو حنيفة إمام الكوفة ، ومالك إمام المدينة ، وسفيان الثورى ، وغيرهم . كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب ، ولا يضيق صدرًا بجدالهم . بل يضرب الأمثال ، بمسلكه معهم واتساع صدره لهم ، على الحرية الفكرية التى يتيحها الإمام للناس فى مجلسه ، ليفهموا العلم ، أو ليؤمنوا عن فهم ، دون إكراه أو إعنات ، وعلى سعة الخلاف الفقهى لكل اتجاهات المسلمين . وعلى اليسر والرحمة فى الشريعة . فكل هذه أسباب لنشر الإسلام وخلود فقهه .

يقول ابن المقفع – وهو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل – إذ يومئ إلى « الصادق » فى موضع الطواف « هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلاّ ذلك الشيخ الجالس » .

ويذهب ابن أبى العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة . فيسأله الإمام : ما يمنعك من الكلام ؟ فيقول : « إجلالاً لك . ومهابة منك . وما ينطق لسانى بين يديك . فإنى شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلنى من هيبة أحد منهم ما تداخلنى من هيبتك » .

رآه الإمام مرّة بالحرم فقال له : ما جاء بك ؟ قال : عادة الجسد وسنّة البلد . ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة . قال الصادق : أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم ؟ فذهب يتكلم . فقال الإمام : لا جدال فى الحج . ونقض رداءه من يده وقال : « إن يكن الأمر كما تقول ، وليس كما نقول ، نجونا ونجوت . وإن يكن الأمر كما نقول ، وليس كما تقول ، نجونا وهلكت » . وأىّ صبر فى حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الإمام

---

(١) عبد الكريم بن أبى العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيبانى أحد قواد بنى مروان الذى صار من كبار الولاة لأبى جعفر . وهو الذى أنقذ أبا جعفر من الموت يوم الرواندية وأبلى – وأهله بنو شيبان أعظم البلاء فى الدفاع عن بنى العباس . ولما قدم ابن أبى العوجاء للقتل للزندقة سنة ١٦١ قال : « لن يقتلونى . لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وحرمت الحلال » لكن علماء الجرح والتعديل فطنوا إليها جميعًا واستبعدوها .

الصادق ؟ وحيث تؤدّى المناسبك !

وإنما ترك الإمام رجلًا ملحدًا سيقتل - بعد - فى إلحاده سنة ١٦١ .

* * *

وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدّة ، فتحًا لأبواب الهداية لهم ، فهو صارم فى صدد المغالين فى علىّ ، أو فيه . ليكفّهم عن غلوائهم . ومنهم بيان بن سمعان التميمى . كان يعتقد ألوهية علىّ والحسن والحسين ثم محمد بن الحنفية ، ثم ابنه أبى هاشم . بل زعموا أنه قال إنه - بيانا - المراد بقوله تعالى : « هذا بيان للناس » . وادعى المغيرة بن سعيد الانتماء إلى الباقر ، وصار يؤلّه عليًّا ثم جعفر الصادق ، ويكفّر أبا بكر وعمر ومن لم يوال عليًّا .

وكذلك كان بشار الشعيرى .

يقول جعفر الصادق لمرازم : « تقربوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون » ويقول له : « إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى وقل له : يا كافر يا فاسق أنا برئ منك » .

دخل عليه بشار يومًا فصاح به : « اخرج عنى لعنك الله . والله لا يظلنى وإياك سقف أبدًا » فلما خرج قال : : « ويحه . ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر . والله إنى عبد الله وابن أمته » .

ويقول عن المغيرة بن سعيد : « لعن الله المغيرة بن سعيد . لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها الشعر والشعبذة والمخاريق . فوالله ما نحن إلّا عبيد ، خلقنا الله واصطفانا ، ما نقدر على ضرر ولا نفع إلا بقدرته .. ولعن الله من قال فينا ما لانقول فى أنفسنا » .

ويقول : « من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله ومن شك فى ذلك فعليه لعنة الله » .

وينبّه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول : « أنا أهل بيت صادقون لا تعدم من يكذب علينا عند الناس . يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا » .

ويقول لخيثمة : « أبلغ شيعتنا أننا لا نغنى من الله شيئًا . وأنه لا ينال ما عند الله إلّا بالعمل . وأن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره .. » .

وهى مقولات لا تترك مجالاً لدعاوى المغالين فى جعفر الصادق وآبائه وبنيه من الأئمة . وتنفى عنه ما ادّعوه من علم الغيب . فلا يعلم الغيب إلّا الله . كما تجعل الأئمة مجعل البشر ، وهى آراء أبيه وجده .

سأل سائل جدّه زين العابدين : متى يبعث علىّ ؟ فأجاب : « يبعث – والله – يوم القيامة . وتهمه نفسه » أى أنه يحاسب يوم الحساب كما يحاسب غيره .

وأما تعبير الأحلام فالصادق يرى أنها « لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء ، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة ، بل كانت فضلاً لا معنى لها . فكانت تصدق أحيانًا لينتفع بها الناس فى مصلحة يهتدى لها ، أو مضرّة يحذر منها . وتكذب كثيرًا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد » .

فرؤى الأنبياء حقائق من هدى النبوة . أما رؤى الآخرين فأصداء أفكار تتحرك فى باطنهم . منها ما يصدقه الواقع ومنها ما يكذبه .

* * *

روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبى عبد الله «الإمام الصادق » أشياء فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه وقيل له إنه خارج بمكة . فخرج إلى مكة ، ونحن مع أبى عبد الله ، فصادفنا فى الطواف . وكان اسمه عبد الملك . وكنيته أبو عبد الله . فضرب كتفه كتف أبى عبد الله .. فقال له أبو عبد الله .. فمن هذا الملك الذى أنت عبده . من ملوك الأرض أو من ملوك السماء ؟ وأخبرنى عن ابنك عبد إلاه السماء أم عبد إلاه الأرض . قل ما شئت تخصم .. إذا فرغت من الطواف فائتنا .

فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه.. قال أبو عبد الله: «أيها الرجل: ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم . ولا حجّة للجاهل .. يا أخا مصر إن

الذين يذهبون إليه ويظنون أنه الدهر ، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم ؟ وإن كان يردّهم لم لا يذهب بهم ؟ – يا أخا مصر لم السماء مرفوعة والأرض موضوعة ؟ لم لا تنحدر السماء على الأرض ؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها ، ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها ؟» .

قال الزنديق أمسكهما الله ربهما وسيدهما .. فآمن الزنديق ..

فقال : اجعلنى من تلامذتك .. فقال : يا هشام بن الحكم . خذه إليك . فعلّمه هشام . فسار يعلّم أهل الشام وأهل مصر الإيمان ..

ويروى هشام : « أن زعيم الديصانية وفد على مجلس الإمام فقال له : دلّنى على معبودى ولا تسألنى عن اسمى . فإذا غلام له صغير فى كفّه بيضة يلعب بها .. فقال : يا ديصانى . هذا حصن مكنون له جلد غليظ . وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق . وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة .. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة فهى على حالها . لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها . ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها . ولا يدرى أللذكر خلقت أم للأنثى . تنفلق عن مثل ألوان الطواويس . أو لا ترى لها مدبرًا ؟

فأطرق الديصانى ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمدًا عبده ورسوله . وأنك إمام وحجّة من الله على خلقه . وأنا تائب مما كنت فيه » .

* * *

قصد إليه فى مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون إليه بيعة « محمد ابن عبد الله » النفس الزكية . فطلب إليهم أن يختاروا واحدًا منهم ليناظره . فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد . وظاهر أن تاريخ ذلك المجلس كان معاصرًا لرفض الإمام الصادق أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ . فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها . له صلة خاصةبالمنصور ، واشتهر عنه أنه لم يبايع محمدًا وقال إنه لم يختبر عدله ، وربما كان ذلك المجلس فى

إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ ، أو فترة الحروب الأخيرة لبنى مروان التى قامت على أثرها الدولة العباسية .

قال عمرو : قتل أهل الشام خليفتهم وضرب الله بعضهم بقلوب بعض وشتّت أمرهم ، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن . فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه .. وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك . فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك .

قال الصادق : إنا نسخط إذا عصى الله . فإذا أطيع الله رضينا . أخبرنى يا عمرو : لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مئونة فقيل لك ولّها من شئت . من كنت تولى ؟

قال عمرو : كنت أجعلها شورى بين المسلمين .

قال الصادق : بين كلهم ؟ قال نعم . قال قريش وغيرهم ؟ قال عمرو : العرب والعجم .

قال الصادق : يا عمرو . أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما ؟ قال : أتولاهما .

قال الصادق : يا عمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما . وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما – فقد عمد عمر إلى أبى بكر فبايعه ولم يشاور أحدًا . ثم ردّها أبو بكر عليه ولم يشاور أحدًا . ثم جعلها عمر شورى بين ستة فأخرج منها الأنصار . ثم أوصى الناس بشىء . وما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك .

قال عمرو : وما صنع ؟

قال الصادق : أمر صهيبًا أن يصلى بالناس ثلاثة أيام . وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلّا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شىء . وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة ولم يفرغوا ولم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة . وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضى ثلاثة أيام

وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين . أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى فى المسلمين ؟

قال : لا .

قال الصادق : أرأيت لو بايعت صاحبك الذى تدعو إليه ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف منهم رجلان . أفمضيتم إلى المشركين .

قال : نعم .

قال الصادق : فتفعلون ماذا ؟

قال عمرو : ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية .

قال الصادق : فإن كانوا مجوسًا وعبدة النار والبهائم وليسوا أهل الكتاب ؟

قال عمرو : سواء ..

وبعد محاورة فى شأن الجزية والصدقات أقبل على عمرو والناس وقال : اتق الله يا عمرو . وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله . فإن أبى حدثنى وكان خير أهل الأرض وأعلم بكتاب الله وسنّة رسول الله أن رسول الله قال : « ومن ضرب بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلف » .

مع القرآن :

كان جدّه علىّ يقول : « سلونى عن كتاب الله . فوالله ما من آية إلّا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار ، فى سهل نزلت أم فى جبل » فلقد كان دائما إلى جوار الرسول . وهو باب مدينة العلم . والإمام جعفر يصدر من المنبع ذاته . يقول مثل جده علىّ « كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن فى شهر أو أقلّ . إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلًا . وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وأسأل الله تعالى . وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار » .

للقرآن عنده المقام الأوّل . يسأل عمن يؤم القوم فيجيب « أن النبى ﷺ قال : يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن . فإن كانوا فى القراءة سواء فأقدمهم

هجرة . فإن كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سنًّا . وإن كانوا فى السنّ سواء فأعلمهم بالسنّة ، وأفقههم فى الدين . ولا يتقدمن أحد الرجل فى منزله . وصاحب السلطان فى سلطانه » .

ونصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلى بحجة . وهو فى قمة البلاغة العربية تسعفه اللغة . لا يلجأ إلى التأويل بديلاً من التفسير . فهو فى فهم النصوص أنفذ بصيرة . لم يعلم له تفسير نوقض فيه . والتفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء[1] .

ومن القرآن ينبثق فقه الإمام فى كل باب :

- يسأل سائل عن قوله تعالى : (من قتلَ نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا) . فيجيب : من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد - والله - قتلها .

- ويجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة) وقوله تعالى فى آخر السورة : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فيفحم الإمام الزنديق فيقول : « أما قوله فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة فإنما عنى النفقة . وأما قوله ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فإنما عنى المودّة . فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودّة » .

- ويقول عن الرزق الذى يحضّ الله على الإنفاق منه : (ومما رزقناهم

---

(١) فى القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة على السموات والأرض ، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة . ومثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة - وهؤلاء المخرجون يبدءون من أن (الله ليس كمثله شىء) والآخذون بالتأويل يبدءون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على أساس الآيات المحكمة . كقوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) يفسرونها على أساس قوله : (لا تدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها .

وللمؤولين تفاسير كثيرة ألفى كثير منها فى غياهب الإهمال وبخاصة تفاسير المعتزلة ، بقى منها الكشاف للزمخشرى الفقيه الحنفى ، وللبلاغة العربية فيه أعظم مكان ..

ينفقون) فيفسرها « ومما علّمناهم يبثون » فالعلم رزق . وإذاعته إنفاق واجب .

– ومن تعبيره عن حجية القرآن أبدا يسأله السائل ؛ لم صار الشعر والخطب يملّ ما أعيد منهما والقرآن لا يمل ؟ فيجيب : « لأن القرآن حجّة على أهل العصر الثانى كما هو حجّة على أهل العصر الأوّل . فكل طائفة تراه عصرًا جديدًا . ولأن كل امرئ فى نفسه ، متى أعاده وفكر فيه ، تلقى منه فى كل مدة علومًا غضّة . وليس هذا كله فى الشعر والخطب »[1] .

– ويقول المفضل : قلت : أخبرنى عن قول الله عز وجل : (وجعلها باقية فى عقبه) قال : « يعنى بذلك الإمامة » جعلها فى عقب الحسين إلى يوم القيامة . فقلت : فكيف صارت الإمامة فى ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعًا ولدا رسول الله – ﷺ – وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة ؟ فقال : إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوّة فى صلب هارون دون صلب موسى . ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك . فإن الإمامة خلافة الله عزّ وجل جعلها فى صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله هو الحكيم فى أفعاله . لا يسأل عن فعله وهم يسألون .

– ويعلن الإمام رأيه بوجوب الإمامة . فيسأله السائل عن منزلة الأئمة . ومن يشبهون ؟ فيقول : كصاحب موسى وذى القرنين . كانا عالمين . ولم يكونا نبيين[2] .

---

(١) يروى الشاطبى – فى كتابه الاعتصام – ما يوضح حاجة العصور كافة لهدى القرآن : رووا للأوزاعى (١٥٧) قول أحد الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ بزمان : « لو خرج رسول الله ﷺ ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة » فقال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ؟.. كان ذلك فى منتصف القرن الثانى للهجرة وفيه تابعو التابعين – فكيف الأمر فيما تلاه من قرون وقرون .

(٢) يحدد الصادق الإمامة بتشبيه قرآنى يفسر وجوبها ، إذ يسأل عن حديث الرسول « من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية » هل هى ميتة كفر ؟ فيجيب « ميتة ضلال » – وكذلك يحدد جدّه زين العابدين معنى العصمة بحد قرآنى إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول : هو من اعتصم بحبل الله المتين أى القرآن . فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة فالإمام يهدى الناس إلى القرآن والقرآن يهدى الناس إلى الإمام بقوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..) . =

– وفى قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول الإمام : « وهل يمحو الله إلّا ما كان ثابتًا . وهل يثبت الله إلّا ما لم يكن » ويقول : « لو علم الناس ما فى القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه » وإنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد . وفى ذلك قوله : « ما عظم الله بشىء مثل البداء » .

– ويسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر « من كتاب الله » . فيسردها ، ويضع فى جوار كل كبيرة النص عليها من الكتاب العزيز فهى :

الشرك : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

اليأس من روح الله : (لاييْئَس من روح الله إلّا القوم الكافرون) .

عقوق الوالدين : (وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا) .

قتل النفس : (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها) .

قذف المحصنات : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة) .

أكل مال اليتيم : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا) .

أكل الربا : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ) .

الفرار من الزحف : (ومن يولهم يومئذ دبره إلّا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

السحر : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) .

الزنا : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

اليمين الغموس : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا أولئك

= ويلاحظ أن الذى فتق الكلام فى الإمامة وفصل وأصل فيها هم تلاميذ الإمام . وربما بدأ الكلام فيها فى عهده كما يقول المستشرق رونالدسن . أما التعريفات الوافية فتنسب إلى الإمام الرضا (٢٠٢) حفيد الإمام الصادق . يقول الإمام الرضا : « الإمامة منزلة الأنبياء . ووراثة الأوصياء . الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول . والإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين » والماوردى من فقهاء أهل السنّة يحدّد غرضها فيقول : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوّة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

الغلول : (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) .

منع الزكاة : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) .

كتمان الشهادة : (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

شهادة الزور : (والذين لا يشهدون الزور) .

نقض العهد وقطيعة الرحم : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

كفران النعمة : (ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) .

بخس الكيل : (ويل للمطففين) .

وترك الصلاة : (....) واللواط : (....) وقول الزور : (....) وشرب الخمر : (....) والبدعة : (....) .

– ومن علم الإمام جعفر بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمى . وفيها مدّ وإطالة وسكت على الساكن قبل الهمز .

* * *

– وفى صفات الله يقول الإمام لعبد الملك بن أعين : « تعالى الله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه .. إن المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجل فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفى ولا تشبيه .. هو الله الثابت الموجود » .

ويقول لمن سأله هل رأى رسول الله ربه : « نعم لقد رآه بقلبه – أما ربنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين » .

وسأله الأعمش – شيخ المحدثين – عن مكان الله فقال : « لو كان فى مكان لكان محدثا » . ولما سئل عن استوائه على العرش قال : « إنه يعنى أنه

لا شيء أقرب إليه من شيء » .

سئل عن قوله تعالى : (وسع كرسيّه السموات والأرض) فقال : « العرش فى وجه هو جملة الخلق والكرسى وعاؤه . وفى وجه آخر هو العلم الذى أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه والكرسى هو العلم الذى لم يطلع عليه أحدا من أنبيائه ورسله وحججه » .

وسئل عن قوله تعالى : (وكان عرشه على الماء) وقول البعض إن العرش كان على الماء والرب فوقه ؟ فأجاب : « كذبوا من زعم هذا فقد صيّر الله محمولاً ، ووصفه بصفة المخلوق ولزمه أن الشيء الذى يحمله أقوى منه » .

وواضح من ذلك نهى الإمام عن التجسيد والتشبيه وتصحيحه أفهام تلاميذه . كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول : إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيمًا .. يزعم أن الله تعالى جسم ! قال الإمام : « ويله أما علم أن الجسم محدود متناه . فإذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان . فإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقًا ! » .

– وواضح منحى الإمام فى الاحتجاج بنظام الكون ، ونظام الجسم الإنسانى ، وبالعقل ، وهو درس من جدّه علىّ يلفت النظر إلى بديع صنع المبدع جلّ جلاله . وفى ذلك قول علىّ :

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

يجىء الإمام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له فقيل له : ادفعها إلى بنى شيبة « وفيهم سدانة الكعبة » . واختلف الناس فى أداء الوصية. وأخيرًا أشاروا عليه أن يأتى الإمام . قال الإمام : « إن الكعبة لا تأكل ولا تشرب وما أهدى إليها فهو لزوارها . فبع الجارية وناد : هل من محتاج ؟ فإذا أتوك فسل عنهم وأعطهم » .

– ويسأل عن القضاء والقدر فيجيب : « هو أمر بين أمرين : لا جبر

ولا تفويض »[1] ويحسم القضية بين الجبرية والقدرية فيقول : « ما من قبْض ولا بسْط إلّا لله فيه مشيئة ورضاء وابتلاء » .

يسأل عن الجبر والتفويض : جعلت فداك . أجبر الله العباد عل المعاصى ؟ فيجيب : الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها . فيقول السائل : جعلت فداك ففوض إليهم ؟ فيجيبه لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهى . فيقول السائل : جعلت فداك فبينهما منزلة ؟ فيجيب : « نعم . ما بين السماء والأرض » .

وفى مجلس آخر يسأله السائل : وما أمر بين أمرين ؟ فيجيب : « مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته . فتركته . ففعل تلك المعصية . فليس ، حيث لم يقبل منك فتركته ، كنت أنت الذى أمرته بالمعصية » .

ويقول لسائل آخر : « قال رسول الله - ﷺ - من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم أن الخير والشرّ بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه . ومن زعم أن المعاصى بغير قوّة الله فقد كذب على الله . ومن كذب على الله أدخله النار » .

ويقول : « إن الله أراد منّا شيئًا . وأراد بنا شيئًا . وما أراده منّا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

---

(١) الجبر أن الإنسان مجبر على أعماله . والتفويض أن الإنسان مخير فيها . وهما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء فى بدايات حياة الإمام - قال بالجبر الجعد بن درهم متأثرًا بقول بيان بن سمعان . وقال بالتفويض غيلان الدمشقى ومعبد الجهنى - وقد قتل الأربعة . الأوّلان قتلهما خالد بن عبد الله القسرى والى بنى أمية . والأخيران قتل الأوّل منهما هشام بن عبد الملك . أما معبد فقتله الحجاج لخروجه عليه فى فتنة ابن الأشعث . وتابع جهم بن صفوان الجعد . وقد قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى أواخر أيام بنى أمية .

وفى حياة الإمام الصادق ازدهرت نظرية الإرجاء إلى الله ، حتى يكون يوم الحساب ، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح . قال بها سعيد بن جبير وحماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة . ومقاتل بن سليمان - وهو من السابقين الأوّلين فى التفسير - وهؤلاء مرجئة السنّة . أما مرجئة البدعة فيرجئون الحساب ولا يوجبون العمل الصالح .

والأوّلون يقولون : إن الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها ولا يكفره الناس فى الحياة الدنيا لذلك الأمل .

مع أهل الكوفة وأبى حنيفة :

ولقد يقول له قائل : إن لى جارًا يزعم أنك تبرأ من أبى بكر وعمر ! فيجيب : برئ الله من جارك . والله إنى لأرجو أن ينفعنى الله بقرابتى من أبى بكر .

أو يسأله السؤال ذاته سالم بن أبى حفصة فيجيب بما أجاب أبوه الباقر : « يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما . فإنهما كانا إمامىْ هدى رضى الله عنهما » .

يقول سالم : قال لى جعفر : « أيسبّ الرجل جدّه ؟ أبو بكر جدّى . لا نالتنى شفاعة محمد يوم القيامة إن لم أكن أتولّاهما وأبرأ من عدوهما » .

ولقد كان لجدّه زين العابدين ابن أسماه عمر . وكان زين العابدين يترحم على أبى بكر وعمر وعثمان .

ويقول أبو حنيفة : « استأذنت عليه فحجبنى . وجاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم . فلما صرت عنده قلت :

يا ابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله - ﷺ - فإنى تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم !

فقال : لا يقبلون منى .

فقلت : ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله ؟

فقال الصادق : أنت أوّل من لا يقبل منى . دخلت بغير إذنى . وجلست بغير أمرى . وتكلمت بغير رأيى . وقد بلغنى أنك تقول بالقياس .

فقلت : نعم أقول به .

فقال : ويحك يا نعمان أوّل من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى وقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين . أيهما أكبر يا نعمان القتل أم الزنا ؟

قلت : القتل .

قال : فلم جعل الله فى القتل شاهدين وفى الزنا أربعة ؟ أيقاس لك هذا ؟

قلت : لا . قال : فأيهما أكبر البول أو المنى . قلت البول .

قال : فلماذا أمر فى البول بالوضوء وأمر فى المنى بالغسل . أيقاس لك هذا ؟

قلت : لا . قال أيهما أكبر الصلاة أم الصوم ؟

قلت : الصلاة . قال : فلم وجب على الحائض أن تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ أيقاس ذلك ؟ قلت : لا .

قال : فأيهما أضعف المرأة أم الرجل قلت : المرأة .

قال : فلم جعل الله للرجل سهمين فى الميراث وللمرأة سهمًا ؟ أيقاس ذلك ؟ قلت : لا .

قال : وقد بلغنى أنك تقرأ آية من كتاب الله : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) : أنه الطعام الطيب والماء البارد فى اليوم الصائف .

قلت : نعم .

قال : لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماء باردًا ، ثم امتن عليك . ما كنت تنسبه إليه ؟ قلت : البخل . قال : أفبخل علينا ؟ قلت : فما هو : قال : حبنا أهل البيت »[1] .

---

(١) يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس . ومدرسة المدينة ، وعلى رأسها مالك ، تقدح فى أهل العراق لكثرة إبداء الآراء باستعمال القياس .

ولئن كان لنا أن نلاحظ تأثر أبى حنيفة الكامل بمنهج الإمام الصادق فى الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق « أبو حنيفة – بطل الحرية والتسامح فى الإسلام للمؤلف صفحة ٧٨ طبعة دار المعارف » أو تأثر مالك بمنهج الإمام الصادق فى عدم المجازفة بالرأى « مالك بن أنس للمؤلف صفحة ٧٦ وما بعدها طبعة دار المعارف » إننا نقطع كذلك بأثره فى النهى عن القياس . فلقد نفع النهى القياسيين أنفسهم فضبطوا القياس وتحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعى فأصله وقعده . وهو القائل : « والاجتهاد القياس » .

يقول الفخر الرازى : « العجيب أن أبا حنيفة كان تعويله على القياس وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات . ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه أنه صنف فى إثبات القياس ورقة . ولا أنه ذكر فى تقريره شبهة . فضلًا عن حجّة . ولا أنه أجاب عن دلائل خصومة فى إنكار القياس بل أوّل من قال فى هذه المسألة وأورد فيها الدلائل هو الشافعى » . فأبو حنيفة استعمل القياس والشافعى استعمله وأصله وقعد القواعد للعاملين به .

ولقد أفاد الشيعة كثرة ما آل إليهم من السنّة ونصوص الحديث فلم يلجَئوا للقياس ، كما كانت قواعدهم الأخرى كافية لبلوغ غرضهم . ومن أسباب الإقبال على القياس فى العراق قلة ما سلموه من =

والمسلمون يرفعون أبا حنيفة إلى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الإسلام ، ولا يجدونه ساكتًا فى يوم من الأيام ، كهيئة ما كان فى ذلك المقام .

فأما تفسير القرآن بما ينفى البخل عن المعطى جلّ شأنه فحجّة الصادق فيه لا رادّ لها . وأما حجاجه بعدم طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبى حنيفة ، إمام الكوفة فى الفقه والأدب الدينى والاجتماعى ، الذى دخل وجلس وتكلم ، دون أن يطيع ، ثلاث مرات .

أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة . ولم يحر أبو حنيفة جوابًا ، وهو المقتدر . ولو سأل الصادق أبا حنيفة عن حكمة كل حكم لأجاب .وأضاف : أن كل ذلك ليس يمنع القياس عنده . وربما كان أبو حنيفة يومذاك كهيئته يوم سكت عن الردّ بأن الظبى لا تكون له رباعية ،

= نصوص السنة . وإنما اتسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التى جمعها واعتمد أصحابه عليها – مع تعويله على أصل الصحابة فزاد مصادر الفقه أصلًا بتمامه .

والقياس الذى يلجأ إليه المجتهدون من أهل السنّة . هو إلحاق أمر لم يرد فى حكمه نصّ أو إجماع بأمر ورد فى حكمه نصّ أو إجماع لاشتراكهما فى المعنى الذى شرع هذا الحكم من أجله فثمة أركان أربعة : الأصل وهو النصّ والفرع وهو الأمر الذى لم يرد فى حكمه نصّ .

والمعنى : الذى من أجله شرع الحكم . والمطلوب وهو الحكم .

وهم يضعون للقياس شروطًا :

١ – أن يكون حكم الأصل ثابتًا بنصّ فى الكتاب أو السنّة أو الإجماع .

٢ – أن يكون لحكم الأصل علّة يدركها العقل . فمن الأحكام ما هو تنفيذى لا يجوز القياس فيه . كتحديد عدد الركعات . ومقدار الأنصباء فى الأموال التى تجب فيها الزكاة . وتحديد عدد الطواف حول الكعبة . فهذه مقدرات لا يقاس عليها لأن العقل لا يدرك علية مقاديرها .

وجميع الأحكام إلّا قليلًا منها ، كالتى سبق ، يمكن العقل إدراك المعانى التى شرعت الأحكام لأجلها .

٣ – أن يتساوى الفرع والأصل فى المعنى الذى شرع حكم الأصل من أجله . وإلّا كان القياس فيه مع الفارق . وأن يكون المعنى ظاهرًا ، لأنه معرف للحكم الخفى والخفى لا يعرف الخفى .

٤ – أن لا يكون فى الفرع نصّ أو إجماع يدل على حكم يخالف القياس .

٥ – أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص الرسول بزواج من زدن على الأربع . واختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين وأن لا تكون العلّة قاصرة على الأصل لا يمكن تعدية حكمها إلى الفرع .

وبالقياس أمكن أهل السنة البناء على النصوص واستعمال العلل فى تحقيق مقاصد الشارع .

مخافة أن يظنّ به ظانّ أنه يريد ردًّا على الإمام ، فى حين أنه قد جاء إلى مجلسه ليتعلّم . أو إجلالاً منه لمقام الإمام وهو بين يديه . فذلك أدب الأئمة الذى جعل الشافعى وهو يصلّى عند قبر أبى حنيفة لا يرفع يديه ويقول : « أدبًا مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته » .

طعم أبو حنيفة يومًا مع الإمام الصادق – فرفع الإمام يده حمدًا لله ثم قال : اللهم هذا منك ومن رسولك . قال أبو حنيفة : يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكا ؟ قال الإمام إن الله يقول فى كتابه : (وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فقال أبو حنيفة : « لكأنى ما قرأتها قطّ فى كتاب ولا سمعتها إلّا فى هذا الموقف » .

* * *

ولقد يدخل عليه سفيان الثورى وفيه قول القائل : « ما رأيت الغنى أذلّ منه فى مجلس الثورى ولا الفقير أعزّ منه فى مجلس الثورى » . والذين يجلون ورع الإمام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثورى . وسفيان الثورى يسمى « أمير المؤمنين فى الحديث » . وحسبه أن يكون من تلاميذه فى الحديث ابن جريح إمام مكة والأوزاعى إمام الشام ومالك بن أنس إمام المدينة ، وابن إسحق إمام المحدثين فى السيرة . وهو فوق كل ذلك إمام عامل . رمى كتاب المهدى له فى دجلة – وفيه توليته للقضاء – وهرب من السلطان فولّى شريكًا بدله .

وكان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء – ولهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه ، وكان يختفى عن عيونه .

يستأذن سفيان على الإمام. فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره فى المجلس العلمى ، وهو مختف ، أمر غير سائغ . صيانة للمجلس العلمى من أن يكون مجلس المطلوبين ، وحماية للمطلوب ذاته . وحفظًا لعلاقة الإمام بالخليفة . ومع ذلك لا يضنّ الإمام عليه بالحكمة .

يقول ابن أبى حازم : « كنت عند جعفر الصادق يومًا وإذا بسفيان الثورى

بالباب فقال : إيذن لى . فدخل . فقال له جعفر : إنك رجل يطلبك السلطان فى بعض الأحيان . ونحضر عنده وأنا أتقى السلطان .فاخرج عنى غير مطرود .

قال سفيان : « حدثنى حديثًا أسمعه وأقوم » .

قال الإمام : حدثنى أبى عن جدّى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله . ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزنه أمر فليقل : لا حول ولا قوّة إلّا بالله » .

طلب إليه سفيان يومًا أن يعظه . فقال : « يا سفيان لا مروءة لكذوب ولا أخ لملول . ولا راحة لحسود . ولا سؤدد لسيئ الخلق » . فقال سفيان : زدنى . قال : « يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنًا . وارض بما قسم الله تكن غنيًّا . وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا . ولا تصحب الفاجر يعلّمك فجوره . وشاور فى أمرك الذين يخشون الله عزّ وجل » . فاستزاده سفيان فقال : « من أراد عزًّا بغير عشيرة ، وغنى بغير مال ، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته » .

فإذا أوصى زرارة عندما ولى القضاء ، ذكّره حساب السماء ، قال : « إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم » فالقضاء أمانة الله . وإذا كان القاضى يجرى عليه قضاء الله فهو مسئول عما يجرى به قضاؤه على غيره .

ويوصى الإمام ابنه موسى الكاظم فيقول :

« يا بنى . من رضى بما قسمه الله له استغنى . ومن مدّ عينه إلى ما فى يد غيره مات فقيرًا . ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله فى قضائه . ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلة غيره .

يابنى : من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته . ومن سلّ سيف البغى قتل به . ومن احتفر لأخيه بئرًا سقط فيها . ومن داخل السفهاء حقر . ومن خالط العلماء وقر . ومن دخل مداخل السوء اتهم .

يابنى : إياك أن تزرى بالرجال فيزرى بك . وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذلّ لذلك .

يا بنى قل الحق لك أو عليك .

يابنى : كن لكتاب الله تاليًا وللإسلام فاشيًا وبالمعروف آمرًا وعن المنكر ناهيًا . ولمن قطعك واصلًا . ولمن سكت عنك مبتدئًا . ولمن سألك معطيًا . وإياك والنميمة . فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال . وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرّض لعيوب الناس بمنزلة الهدف » .

وتصبح هذه الوصية تراثًا للأئمة بعده . فيعلن الإمام الثامن « على الرضا » أنه « ما ترك هذه الوصية إلى أن توفى » .

* * *

ولقد يفد على المجلس الكميت - شاعر أهل البيت - كما كان يدخل على زين العابدين[1] والإمام يعرف انبعاث الشاعر . ويخشى عليه من الخيال الصادق

---

(١) دخل الكميت على زين العابدين فأنشده قصيدته التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

وقال الإمام : ثوابك نعجز عنه لكن الله لا يعجز عن مكافأتك . اللهم اغفر للكميت . ثم قسط على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم . أعطاه القسط الأول . قائلا : خذ يا أبا المستهل . قال الكميت لو وصلتنى بدانق كان شرفا لى ولكن إن أحببت أن تحسن إلى فادفع لى بعض ثيابك ، التى تلى جسمك أتبرك بها . فنزع ثيابه ودفعها إليه كلها ثم قال : اللهم إن الكميت جاد فى آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضن الناس . وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا . وأمته شهيدا . وأره الجزاء عاجلا وأجزل له المثوبة آجلا . فإنا قد عجزنا عن مكافأته - قال الكميت فيما بعد : فما زلت أعرف بركات دعائه .

ولئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم ، إن تقسيط العطاء آية سخاء فى التشجيع ، وارتباط طويل بالمودة بين قرض الشعر وبين من أجازه .

وتعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين العابدين على جده - صلى الله عليه وسلم - كان يمكث شهرا ما يستوقد نارا ، إن هو إلا التمر واللبن . ومع ذلك لا يرد أحدًا يسأله ، بل يعطيه إذا كان عنده وإلا وعده . وذات يوم جاءه رجل . فقال عليه الصلاة والسلام : « ما عندى شىء . ابتع على فإذا جاء شىء قضيناه » . قال عمر : يارسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره ما قال عمر . وقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا . فتبسم صلى الله عليه وسلم . وقال « بهذا أمرت » .

فى تصوير ظلم يعانيه أهل البيت . وشعر الكميت من أسير الشعر فى الأدب العربى – والبرد تنقل للخليفة الخبْء من أى شىء – فيستأذن الكميت الإمام قائلًا : جعلت فداك . ألا أنشدك ؟ فينبهه الإمام قائلًا : « إنها أيام عظام » .

فيقول الكميت عن القصيدة : إنها فيكم . ويقول الإمام : هات فينشده قصيدته التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأمل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

إلى أن قال :

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية تفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنّة مما نخاف ونعقل

فكثر البكاء وارتفعت الأصوات إلى أن قال :

كأن حسينًا والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلى المتبقل
فلم أر مخذولًا أجل مصيبة وأوجب منه نصرة حين يخذل

فرفع جعفر الصادق يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخر . وما أسرّ وما أعلن . وأعطه حتى يرضى . ثم أعطاه ألف دينار وكسوة .

قال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هى لديه ، ولكنى أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها . أما المال فلا أقبله . .

المذهب الجعفرى

أخرج الحاكم فى تاريخه بالإسناد إلى أبى بكر عن رسول الله قال : « من كتب علىً علمًا أو حديثًا لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم أو الحديث » .

وأجمع أبو بكر أيام خلافته على تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرًا . قالت عائشة : فغمنى تقلبه . فلما أصبح قال لى : « أى بنية هلمى الأحاديث التى عندك » فجئت بها فأحرقها .

وعن الزهرى عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها . فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا ثم أصبح يومًا فقال : « إنى كنت أريد أن أكتب السنن . وإنى ذكرت قومًا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله . وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدًا » .

لكن عليًّا دوّن . وخلف فى شيعته طريقة « التدوين » . فلقد كان على ثقة من طريقته . وهو الذى يقول فيه الرسول : « علىّ مع القرآن والقرآن مع علىّ ولن يفترقا حتى يردا على الحوض » وعنه قال الرسول : « يا معشر قريش . والله ليبعثن الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين قال أبو بكر : أنا هو يارسول الله ؟ قال : لا . قال عمر : أنا هو يارسول الله ؟ قال : لا . ولكن ذلك الذى يخصف النعل » .

وكان علىّ يخصف نعلاً للنبى عند ذلك .

وبالتدوين الفقهى استقرّ المذهب فى صدور الحفظة والنقلة ، من علىّ إلى بنيه ، فبنيهم ، وبخاصة زين العابدين وزيد والباقر والصادق . ثم عملت مجالس الإمام الصادق فى نشره كمثل عمل التدوين فى استقراره . وأدرك الأئمة الذين تلمذوا له وتلاميذهم أمورًا ترفع مجلس الصادق فوق المجالس ، سواء

مجالس أهل السنّة أو « أهل البيت » منها :

١ – أن الذى يلقى هذا العلم إمام موصى إليه « باسمه » من أبيه . وبهذا ينماز من عمّه زيد بن علىّ صاحب المذهب الزيدى ومن غيره من الشيعة .

٢ – أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعًا فى مكان خاص . فالسنّة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه – إلّا ما ندر – فعنه يروى آلاف ، وعنهم جاءت الأحاديث المروية فى كتبهم .

٣ – أن الآراء الفقهية فى أصول الدين وأصول الفقه وفروع المعاملات والعبادات سيراها اللاحقون منسوبة إليه . وربما اقترن به أبوه الباقر ، أو أشير إلى رأى جدّه ، السجّاد ، لكن نبع العلم منه هو الأشهر والأكثر .

وإذا لم يعرف التاريخ إمامًا فى السنن من درجته أو إمامًا فى الفقه من مرتبته . فالتاريخ – كذلك – لا يعرف إمامًا اجتمعت له الإمامتان مثله .

٤ – أنه الإمام الذى يوثقه أئمة المسلمين جميعًا . ويستوى فى ذلك من أهل السنّة أئمة الرأى فهم تلاميذه ، وأئمة الحديث فهو القمّة منهم .

وروايته للحديث يوثقها واضع الأساس العلمى لقبول الحديث « الشافعى » ، وعلماء الجرح والتعديل كيحيى بن معين وأبى حاتم والذهبى وابن حنبل والآخرين ، وتتردد فى كتب الصحاح أحاديثه . كما يبايعه إمام أهل البيت الذى سبق بفرقة عظيمة وفقه خالد ، عمه زيد بن على زين العابدين ، صاحب « المذهب الزيدى » . ويضعه موضع الإمامة فيقول : « فى كل زمان رجل من أهل البيت يحتجّ به الله على خلقه وحجّة زماننا ابن أخى جعفر لا يضلّ من كان من شيعته ولا يهتدى من خالفه » .

٥ – أن هذا الإمام هو أوّل وآخر واحد من صلب آبائه وأجداده منّ الله عليه بهذه الفرصة : أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزة ، وأوائل عهد الدولة العباسية ، التى تمد إليه بسبب ، من السلام أو الخصام ، وآصرة من النسب ، تخدمانه أو تخدمانها – وهى ترفع شعار أهل البيت والدفاع عن الدين – وبهذا أتيحت له حرية الجلوس لكل الناس ،

والتدريس لكل العلوم ، وأن تسيل الأباطح بأعناق المطىّ إليه من بقاع العالم ، فى حقبة ممتازة من التاريخ العالمى والإسلامى .

٦ - أنه الإمام الذى طمأن الخلفاء « الملوك » فى الدولتين ، ومنهم سفاحون غلاظ الأكباد . فهوكما يقول الشهرستانى وأبو نعيم فى الملل والنحل وحلية الأولياء « ما تعرّض للإمامة قط ولا نازع فى الخلافة أحدًا . ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط . ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط » .

٧ - أنه الإمام الذى أتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد موت أبيه سنة ١١٤ أن يكون « الإمام » . فامتد به عصر سلام ، ضرورى لنشر العلم ، باطمئنان طالبه ، وواهبه ، والدولة التى ينتشر فى رعاياها .

* * *

هذه العناصر التى لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعًا ، هى التى سوغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهبه المذهب « الجعفرى » . وما هو فى صميمه إلاّ « مذهب علىّ » . وإنما تخوّل السماء بركاتها لبعض الأسماء فى شكل حظوظ . وكان الإمام جعفر الصادق جديرًا بنعمة السماء قدر ما صدق وكافح فى خدمة الإسلام .

وما كان علىّ بحاجة إلى ما يخلد اسمه . فالإسلام فى أعظم أيامه يقترن باسم علىّ ، قدر ما اقترن اسم علىّ بالنبى وبيت النبى .

والمذهب يحمل اسم جعفر لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السنّة الصحيحة ، ومصادر الفقه العظيم ، والمنهاج السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى نهجه تابعوه ، وروى ذلك كله الآلاف . وروى عنهم أمثالهم .

وفى الجدود ، بمعنى الحظوظ ، جدّ وجد ،لكنها ليست خبط عشواء : فاسم أمريكا قد خلد اسم أمريجو ڤسپوتشى ، لأن أمريجو ڤسپوتشى كان كاشفًا حقيقيا لبعض شواطئها سنة ١٤٩٩ .

ولم يغمط حظّ الكاشف الثانى حق كرستوفر كولمبس ، الكاشف الأوّل لها فى

سنة ١٤٩٣ . فاسم كولومبوس مايزال يجرى على كل لسان على أنه كاشف العالم الحديث .

والتاريخ - كله - يقدمه على قسبوتشى .

ولسنا فى مقام مقارنات برجال ، فعلىّ وجعفر فوق المقارنات ، بما قدموا للعالم كله - وسيطه وحديثه - من عناصر الحضارة ، التى نقلت العالم من جهالات العصور القديمة وظلمات العصور الوسطى ، إلى الحضارة المعاصرة ، على عجلات التقدم ، يحركها العلم الصحيح ، والاجتهاد الذى لا يتوقف . وكسب الأمم من علم الأئمة . كاقتران أسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم وأرباب الابتكارات بفتوحهم ، ليس صدفة . ولا محض جزاء . وإنما هو توفيق من الله للإنسانية وللناس ، لتكريم أمم ، ورجال ، فتحوا أرض الله لعباده . أو مكنوهم من أنعم السماء ، أو سنن الأنبياء ، ليشجع الشجعان ، ويستمر ضوء الفكر الإنسانى فى إشراقه . حفزًا للعزائم وظهورًا للعلم .

ومنذ القرن الميلادى الماضى يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعة على مقاييس الطبيعة : الوات نسبة إلى Watt والفرد نسبة إلى Faradayوالأمبير نسبة إلى Ampere والفولت نسبة إلى volta والأهم نسبة إلى Ohm والميجاهرتز نسبة لهرتز Hertz ورونتجن نسبة إلى Rontigen وهم إنجليزيان وفرنسى وإيطالى وثلاثة من الألمان .

وأين تجربة أو تجارب أو كشف أو كشوف من شريعة بتمامها ، وإمام فى الصدر من أئمتها ، وطّأ نصوصها ، وأصّل أصولها ، وقعد القواعد لها ، وأقام عليها دولاً باقية بقاء الزمان ، ومجتمعات خالدة بخلود الإسلام ، ينسب المذهب فيها إلى صاحبه ، فيكون المذهب « الجعفرى » أو المذهب « الإمامى » المنسوب إلى الإمام جعفر وإلى القول « بإمامة الأئمة الاثنى عشر » .